9 me Année No. 425

Lundi - 25 - 8 - 1941

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٤٢٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢ شعبان سنة ١٣٦٠ — الموافق ٢٥ أغسطس سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهــــــرس

شيء واحـــد !

للأستاذ عباس محمود العقاد

كان الضابط المصرى « أحمس » الذى ارتفع إلى عرش الفراعنة فى القرن السادس قبل الميلاد معروفاً فى صباه بالمزح والمجون ، وكان عربيداً لا يسلم من دعاباته زملائه ولا رؤساؤه ولا أصحاب القداسة من أحبار زمانه . فلما استوى على عرش بلاده نسى أصحابه أنه فرعون مصر وذكروا أنه الضابط العربيد ، ثم جروا فى معاشرته على السنة التى ألفوها يوم كانوا أنداداً فى الرتبة وإخواناً فى اللهو والمجانة ، فصبر قليلاً على هذه المعاشرة التى لا يصبر عليها الملوك ، ثم ضاق ذرعاً بها وبأصحابه وأزمع أن ينهرهم بالعظة والتمثيل ، قبل أن ينهرهم بالسطوة والتنكيل ؛ وقيل فيما قيل من أساطيره الكثيرة أنه أتى بإناء من الفضة تغسل فيه الأيدى فاتخذ منه تمثالاً لرب من الأرباب المعبودة فى زمانه . ثم نصب التمثال فى مدخل القصر حيث يراه القوم أول ما يرون عند دخوله ، فما عبروه حتى خروا له ساجدين

وظهر لهم أحمس وهم يسجدون للتمثال فقال لهم : أتعلمون مم صنع هذا التمثال الذى حييتموه بالسجود ؟ إنه من ذلك الإناء الذى كنتم فى الوليمة الماضية تغسلون فيه أيديكم وتبصقون فيه من مضمضة أفواهكم . فمن منكم يجرؤ اليوم أن يبصق عليه

أو يصيبه بضالة الأيدي ؟ من فعل ذلك فجزاؤه الموت والعار ، وإن كان معدنه اليوم كمعدنه أمس في سوق البيع والشراء

وفطن الضباط لما أراد ، وعلموا أن أحمس الفرعون غير أحمس الضابط المريد ، فسجدوا حيث كانوا بالأمس يلقون الرشاش من غسالة الأفواه !

* * *

والمقصود من عظة « أحمس » أن الشيء الواحد قد يختلف في قيمته باختلاف الصورة حتى يهان ويبتذل في صورة ، ويصان ويعبد في صورة أخرى

ولكننا نتجاوز ما أراده أحمس في هذه العظة لنقول : إن الشيء الواحد في الصورة الواحدة يختلف باختلاف التقدير والنظر حتى يهان ويبتذل عند أناس ويصان ويعبد عند آخرين ، بل حتى يكون له عند الإنسان الواحد شأنان متفاوتان

وهذا تمثال أحمس نكتفي به ولا ننتقل إلى غيره لنعرف كيف يختلف قدره باختلاف النظر إليه

فالصانع الفنان يعطيه في تقويمه قيمة التحفة الجميلة التي لا تحسب بالدراهم والدنانير

والبخيل المقصيد المال يغليه بمقدار ما يبذله فيه طلاب اقتنائه من عشاق الفن أو عباد هذه الأرباب

وعابد الوثن يتمرغ بين يديه

ومنكر الوثن يمرغه هو في التراب ، وقد يعدو ذلك إلى تحطيمه وتحريم النظر إليه في صيغته المعبودة

وتاجر الفضة يحيله إلى الميزان ، وصاحب الضرورة يبيعه بأبخس الأثمان ، وحارسه يمنع الغبار أن يصل إليه لأنه يمنع رزقه وعقيدته وحماه

وهو مع هذا شيء واحد في صورة واحدة

فهل هو في الحق شيء واحد أو جملة أشياء ؟

* * *

كنا على المائدة نخوض في حديث من هذا المعنى رهطاً من الإخوان الأدباء ورجال الفن والثقافة

فقال أحدنا : إن صديقنا فلاناً لتستهويه تلك الفتاة التي كانت تتهالك على من دونه فضلاً وعلماً ومكانة فلا تظفر منه بأكثر من الهوينا أو الإعراض عنها ؛ فما باله لا يرعوي ؟ ألا يهديه هاد أو يرده إلى صوابه ناصح أمين ؟

قلت : وهل الفتاة التي استهوت صديقنا هي الفتاة التي استهواها من هو دونه في فضله ومقامه ؟

قالوا : نعم . هي فلانة !

قلت : أعلم أنها هي فلانة ، ولكني أحسب مع هذا أن تلك الفتاة هي غير هذه الفتاة

وكان أمامنا على المائدة صحفة من البط المطبوخ ، فمضيت أقول : ألا أحدثكم بلغة الأماثيل فيما نتناوله الآن من الطعام ونحن مستطردون فيما بدأناه آنفاً من حديث العظات الرمزية ؟

كان أربعة في جيرة واحدة من أحياء المدينة : متسول ولص ورجل كادح لرزقه وصائد من هواة الرياضة

فقال المتسول لزميل له وقد عبر به اللص في قيوده مسوقاً إلى سجنه : أنظر إلى ذلك الأحمق ! . . . سطا على حظيرة البط ليلة أمس فتيقظ له الحارس وأوشك أن يرديه برصاصة لأنه طمع في بطة أو بطتين ! وها هو ذا يساق إلى السجن حيث يصوم عن أمثال هذه الطعوم . أفما كان خيراً له أن يصنع كما صنعت أمس وقد شممت رائحة البط المطبوخ في منزل ذلك الصائد فطرقت الباب حتى ناولوني صحفة أكلتها هانئاً بها غير جاهد في شرائها ولا سرقتها ولا صيدها ولا طبخها ولا اقتناء صحائفها ؟ فأين غابت عنه حكمة القناعة وهي أقرب إليه من ذلك الخطار ، ومما وراءه من الحبس والعار ؟!

قال زميله : وما ظنك بالصائد الذي أكلت البط المطبوخ من بيته ؟ أليس هو أحمق من اللص في طلب البط الذي يجود به مطبوخاً ولا ينال منه أكثر مما تنال ؟ فعلام السفر من هنا إلى البحيرات النائية ؟ وعلام شراء السلاح والعدو بين الماء والمراء ؟ وعلام صيد الأسراب وبطة واحدة تكفيه ، أو لعله يجود بها على سائليه ؟

وأصغى إليهما الرجل الكادح لرزقه فقال : الحمد لله على ما وفقني له من القصد والسداد : دريهمات معدودات تغنيني عن نفقة الصياد وعن ذل السؤال وعن غشيان السجون

فمن من هؤلاء الأربعة على صواب ! لو أخذنا بالظاهر لكان الصائد المتعب أحمق الأربعة ، ولو أخذنا بالحقيقة لكان دونهم جميعاً هو صاحب السهم الربيح والعقل الرجيح ، لأن البطة

عنده ليست هي البطة التي يسرقها اللص ، أو يستعطيها المتسول، أو يشتريها الشاري من السوق ، ولكنها شيء يستحق أن يجهد له بالسفر والنصب وتعلم الرماية وبذل المال في السلاح ، وهي كذلك شيء غير الذي ظفر به المتسول من بيته مطبوخاً بغير ثمن . فلا وجه للمبادلة ولا المقابلة بين الشيئين

وهكذا يجوز أن تكون الفتاة التي استهوت صديقنا غير الفتاة التي تؤكل رخيصة على موائد منافسيه ، فإنما العبرة بما يشعر به هو وما يشعر به هؤلاء ، وليست العبرة بوحدة الأسماء والأجسام .

وليس الشيء الواحد بشيء واحد على هذا التقدير

* * *

تلك حقيقة ينساها معظم الناس وهي داخلة في كل عمل من أعمالهم اليومية ، معترضة في كل خطوة من خطوات الحياة

فالصنف الواحد من الخضر يشتريه اثنان في يوم واحد من سوق واحدة بثمن واحد ، فيؤكل على مائدة أحدهما كأنه من طعام أهل الجنة ، ويؤكل على مائدة الآخر كأنه السم الزعاف

والكتاب الواحد يطالعه القارئان فيستفيد أحدهما منه ما لا يقدر بمال ، ويخرج الآخر من قراءته ولم يأخذ منه ما يساوي ثمن ورقه

والمكان الواحد يقصده زائران فيرجع أحدهما بالصحة والمعرفة والثروة ، ويرجع الآخر منه بالمرض والضلال والإفلاس

وقد تفتحت عيناي على هذه الحقيقة منذ أيام الطفولة ، فشهدت في بلدتي التي نشأت فيها التقاء الحضارات القديمة والحديثة ، والتقاء الأمم من غربية وشرقية ؛ وكان يزور أسوان في الشتاء ألوف السائحين منهم الأمريكي والإنجليزي والفرنسي والألماني والنمسوي ، وأبناء الأمم الأوربية كافة ، فكانت أوربا عندي على اجتماعها في كلمة واحدة صوراً مختلفات لا تتفق في مشارب ولا أطوار ولا عادات

وكنت أسمع العجب من اختلاف الآراء في سن يعجب فيها الإنسان من كل مشهود ومسموع ، فلا أعجب ولا أحار إن عجبت ، لكثرة ما تعودت من نقائض الأفهام والأحكام

زار أسوان أمير انجليزي كبير ، فخرج في الظهيرة إلى حيث يلعب « التنس » مع فئة من صغار الموظفين والضباط ، وشهدت مجلس والدي في المساء وأنا معجب بالأمير الحر الظريف ، فما سمعت تأففاً من شيوخ المجلس كالتأفف الذي سمعته منهم تلك الليلة ، وهم يعيبون على الأمير لعبه « أولاً » ونزوله في اللعب إلى مرتبة الصغار من الموظفين « ثانياً » ، وخلعه ملابس الإمارة ليظهر في لباس العامة « ثالثاً » ، وما شئت من مآخذ شتى : رابعاً وخامساً وسادساً إلى غير انتهاء

وكان « العقلاء » يضحكون من هؤلاء الأوربيين الذين يبلون أحذيتهم أو ينضون مطاياهم في الجبال ليرجعوا منها بكيس ملآن بحجارة وحصيات تلقى في عرض الطريق ، وكنت أرى هذه الحجارة في متحف المدرسة ، فأحسبها كنزاً من الكنوز المكنونة ، أو أحسبها على أقل تقدير لها موضوع درس ممتع مفيد

وكان المنقبون في الآثار القديمة من عامة الناس يهزأون بالعلماء الذين يعطونهم الذهب ويأخذون منهم خرقة بالية أو حلية مكسورة أو ورقة ممزقة ، وكنت أسمع في دروس التاريخ كل أسبوع أن هؤلاء العلماء رابحون مفلحون ، وأن الخاسر الحقيق بالاستهزاء هم أولئك الجهلاء المستهزئون

وازددت علماً بالدنيا وبنيها ، فكأنما اجتمعت الزيادة كلها في توكيد هذه الحقيقة الجامعة وخلاصتها بلغة الحرب والتسعيرة والغلاء : أن ليس لعروض الدنيا تسعيرة واحدة ، وأن ما يصدق من ذلك على العروض والأشياء ، أحرى أن يصدق على الأحياء وعلى الرجال والنساء

عباس محمود العقاد

بمناسبة الذكرى الرابعة عشرة

قصائد الشعراء في تأبين سعد

للدكتور زكي مبارك

— ١ —

في مثل هذه الأيام من سنة ١٩٢٧ فُجعت مصر بوفاة الزعيم سعد زغلول ، والتفتت الأمم العربية إلى هذه الفجيعة الدامية ، فنُظمت القصائد الجياد في الحزن لوفاة ذلك الزعيم العظيم ، نظمها شعراء فضلاء من الحجاز واليمن والمغرب والشام والعراق ؛ وكان من أجود المراثي التي صدرت عن شعراء الأمم الشقيقة قول الأستاذ بشارة الخوري شاعر لبنان :

قالوا دهتْ مصرَ دهياءٌ فقلتُ لهم
هل غُيِّضَ النيل؟ أم هل زُلزل الهرم؟
قالوا أشدُّ وأدهى ، قلتُ ويحكمُ
إذن فقد مات سعدٌ وانطوى العلم
لِمْ لا تقولون إن العُرْبَ قاطبةً
تيتّموا ، كان زغلولٌ أبا لهم

وما نريد في هذه الدراسات الوجيزة أن نتحدث عما تفضل به شعراء الأمم العربية من المواساة الكريمة لوادي النيل ، فذلك يوجب أن نستعد لأبحاث طوال لا يسمح بها الزمن الضنين ، فلم يبق إلا أن نتحدث عن القصائد التي نظمها أكابر شعراء مصر من أمثال : شوقي وحافظ والعقاد والجارم ومطران

حفلة التأبين

أقيمت تلك الحفلة التاريخية في اليوم السابع من أكتوبر سنة ١٩٢٧ بعد انقضاء الأربعين لوفاة سعد زغلول ، وكان الخطباء والشعراء على هذا الترتيب : مصطفى النحاس ، عبد الخالق ثروت ، محمد محمود ، حسن نبيه المصري ، حافظ ابراهيم ، عبد الحميد سعيد ، فكرية حسني ، مكرم عبيد ، أحمد شوقي ، نسيم أصيبعة ، عباس محمود العقاد ، حسين رشدي ، بهي الدين بركات

جو الحفلة

ومن هذه الأسماء نلاحظ أن جو الحفلة روعيت فيه الصِّبغة القومية والعربية ، فقد تكلم محمد محمود من حزب الأحرار الدستوريين ، وتكلم محمد سعيد عن الحزب الوطني ، وتكلمت فكرية حسني عن السيدات ، وتكلم نسيم أصيبعة عن سورية .

دموع ثروت

وكانت الحوادث قضت بأن يصفو ما بين سعد وثروت بعد طول الخصام والعداء ، فلما وقف عبد الخالق ثروت لرثاء سعد زغلول ، نظر إلى صورة الصديق الفقيد ، فغلبه الحزن وأجهش بالبكاء ... فترك المنبر ، وقدم خطبته للأستاذ محمد عبد الرحمن الجديلي ، فأتمها بالنيابة عن ذلك الخطيب المحزون

برقية نسيم

وفي تلك الحفلة ألقيت برقية نسيم باشا ، رئيس الديوان الملكي حينذاك ، وفيها يقول :

« أشاطركم الأسى وأقاسمكم الشعور في تأبين الفقيد العظيم ، أسبغ الله عليه ثوب الرحمة والرضوان ، وإني أستوهبكم عذراً : إذ ليس ميسوراً لي حضور الحفلة اليوم »

وإنما نصصت على هذه البرقية لأن جريدة « البلاغ » أشارت إلى أنها لفتت أنظار الحاضرين ، ولبيان هذه الإشارة شرح يطول إن تاريخنا السياسي الحديث فيه أسرار وغرائب وأعاجيب ، فأين الباحث الذي يميط اللثام عن العبقرية المصرية في ميادين الجدل السياسي ؟

إن طلبة الدكتوراه بكلية الآداب يشغلون أنفسهم بإعداد الرسائل عن مشكلات العصور الخوالي في الأدب والسياسة والاجتماع ، فمتى يتجهون إلى درس المشكلات الأدبية والسياسية والاجتماعية في العصر الحديث ؟

سارعوا إلى درس هذا العصر قبل أن تضيع الوثائق ، وقبل أن يموت الشهود ، فقد يصعُبُ عليكم درسه يوم يصبح ظنونا في ظنون !

قصيدة شوقي

نشرت في صدر « الأهرام » مع تمهيد نظنه من قلم المرحوم صادق عنبر ، وهو يقول في ذلك التمهيد :

« هذه هي القصيدة التي تنزلت من سماء العبقرية وحياً يسيل

نور الحكمة على أبياته ، ويتجلى الإعجاز في حالية آياته ، وتتعرف فيه مواضع سجداته ... أبدعها شاعر العصر « شوقي » في تأبين زعيم الشرق « سعد » وأودعها صورتين متقابلتين إحداهما صورة الحياة التي تعجز الموت ، والأخرى صورة الموت الذي يعجز الحياة ، منتزعاً من الحياة والموت معاً أصدق ما فيهما من العظات، وأجل ما فيهما من العبر والمثلات . وإنك لتجد فيما بين ذلك روحاً من الحكمة الكهلة ترف على كل بيت من أبياتها كما تدرج نسمة من الصَّبا في الخميلة النضرة الفيحاء . وقد تمثلت في هذا الشعر عاطفة شوقي المشبوبة وعظمة سعد الخالدة . وناهيك من خالدين تلاقيا ، وسحرين تظاهرا »

جو القصيدة

لم أكن في مصر يوم مات سعد ، وإنما كنت في باريس ، فلا أعرف أين كان شوقي يوم مات سعد ، فهل كان بمصر ؟ في القصيدة ما يشهد بذلك ، كأن يقول :

قلتُ والنعش بسعدٍ مائلٌ ... فيه آمالُ بلادٍ ومُناها

وفيها مع ذلك أبيات تشهد بأنه كان يصطاف في البلاد السورية ، كأن يقول :

سائلوا « زحلة » عن أعراسها ... هل مشى الناعي عليها فمحاها
عطل المصطافُ من سُمّاره ... وجلا عن ضفة الوادي دُماها
فتّح الأبوابَ ليلاً دَيْرُها ... وإلى الناقوس قامت بيعتاها
صدع البرقُ الدُّجا تنشرُه ... أرض سوريّا وتطويه سماها
يحمل الأنباء تسرى موهناً ... كعوادي الثكل في حرّ سراها
عرض الشك لها فاضطربت ... تطأ الآذان همساً والشفاها
قلت يا قوم اجمعوا أحلامكم ... كلُّ نفس في وريديها رداها

فهذه الأبيات صريحة في أن الشاعر كان في سورية حين مات سعد ؛ فكيف جاز له أن يخاطب النعش ولم يكن من المشيّعين ؟

إنما صنع ذلك ليتسق له هذا الحوار الجميل :

يا عدوَّ القيد لم يلمح له ... شبحاً في خطةٍ إلا أباها
لا يَضِقْ ذرعُك بالقيد الذي ... حزّ في سوق الأوالي وبَرَاها
يا رفاتاً مثل ريحان الضحى ... كللتْ عدنٌ به هام رباها
وبقايا هيكلٍ من كرمٍ ... وحياةٍ أترع الأرض حياها
ودعَ العدلُ بها أعلامَهُ ... وبكت أنظمة الشورى صواها
حضنتْ نعشك والتفت به ... راية كنت من الذل فداها
ضمّت الصدر الذي قد ضمها ... وتلقّى السهم عنها فوقاها
عجبي منها ومن قائدها ... كيف يحمي الأعزل الشيخ حماها

وهنا يظهر روح القصيدة ، فالشاعر يتحدث عن القيد وعدو القيد ، ويذكر الراية التي احتضنت نعش سعد ، بعبارة لطيفة تعد من أدق العبارات ، إذ جعل الراية تحس نار الفجيعة ، وتشعر بفقد القائد الذي كان يحمي حماها ، وإن جردته الأقدار من السلاح

عيون القصيدة

وفي هذه القصيدة أبيات روائع ، منها قوله في فجيعة مصر بدفن سعد :

ما درتْ مصر بدفنٍ صُبِّحتْ ... أم على البعث أفاقت من كَراها
صرختْ تحسبها بنتَ الشَّرى ... طلبت من مخلب الموت أباها

وقوله في جزع مصر لفقد الخطيب الذي أسكرها بسحر بيانه حيناً من الزمان :

طافت الكأسُ بساقي أمةٍ ... من رحيق الوطنيات سقاها
عطلتْ آذانُها من وترٍ ... ساحرٍ رنّ مليّاً فشجاها
أرغُنٌ هام به وجدانها ... وأذانٌ عشقتْهُ أذناها
كلُّ يومٍ خطبةٌ روحيةٌ ... كالمزامير وأنغام لُغاها
دلّهتْ مصراً ولو أن بها ... فلواتٍ دلّهت وحش فلاها

وقوله في مصاير الأحياء :

زورقٌ في الدمع يطفو أبداً ... عرف الضفة إلا ما تلاها
تهلع الثكلى على آثاره ... فإذا خفّ بها يوماً شفاها

وقوله في فضل سعد على الثورة وجعلها خير ما ترك من الذرية :

ولدَ الثورة سعدٌ حُرّةً ... بحياتي ماجدٌ حُرٌّ نماها
ما تمنّى غيرها نسلاً ومَن ... يلد الزهراء يزهد في سواها
رَقدَ الثائرُ إلا ثورةً ... في سبيل الحق لم تخمد جذاها
قد تولاها صبياً فكوتْ ... راحتيه وفتياً فرعاها
أعلمتم بعد موسى من يدٍ ... قذفت في وجه فرعون عصاها
وَطَنيّتْ ناديةً صارخةً ... شاه وجهُ الرّق يا قوم وشاها

وقوله في أخلاق سعد :

أين من عينى نفس حرة — كنت بالأمس بعينى أراها
روعة النادى إذا جدّت فإن — مزحت لم يذهب المزح بهاها
يظفر العذر بأقصى سخطها — وينال الود غايات رضاها
ولها صبر على حسادها — يشبه الصفح وحلم عن عداها
لست أنسى صفحة ضاحكة — تأخذ النفس وتجرى فى هواها
وحديثاً كروايات الهوى — جدّ للصب حنين فرواها
وقناة صعدة لو وهبت — للسماك الأعزل اختال وتاها

تلك عيون هذه الشوقية، وما زاد فهو معان يكررها شوقى فى أكثر مراثيه، وإن كانت تجل عن الابتذال

قصيدة حافظ

ابتدأ حافظ قصيدته بما ألف الشعراء من الحديث عن تأثر الوجود لفقد العظماء، فسأل الليل: هل شهد المصاب ورأى كيف ينصب فى النفوس؟ ثم دعاه إلى تبليغ الشرقين غياب الرئيس، مع نعيه للنيرات لتلبس عليه ثوب الحداد؛ ثم توجع لغياب سعد عن الحفل فقال:

أين سعد فذاك أول حفل — غاب عن صدره وعاف الخطابا
لم يعوّد جنوده يوم خطب — أن ينادى فلا يرد الجوابا
علّ أمراً قد عاقه، علّ سقما — قد عراه، لقد أطال الغيابا
أى جنود الرئيس نادوا جهاراً — فإذا لم يجب فشقوا الثيابا

ثم وازن بين بلية فلسطين بالزلزال وبلية مصر بموت سعد، فقال:

قل لمن بات فى فلسطين يبكى — إن زلزالنا أجل مصابا
قد دهيتم فى دوركم ودهينا — فى نفوس أبين إلا احتسابا
ففقدتم على الحوادث جفناً — وفقدنا المهند القرضابا
صله ربه زماناً فأبلى — ثم ناداه ربه فأجابا
قدر شاء أن يزلزل مصراً — فتمادى فزلزل الألبابا

وجعل حمل النعش على المدافع دليلاً على أنه أضخم من أن تحمله الرقاب:

خرجت أمة تشيع نعشاً — قد حوى أمة وبحراً عبابا
حملوه على المدافع لما — أعجز الهام حمله والرقابا

واتخذ تعزية «التيمس» شاهداً على عظمة سعد فقال:

ساقت التيمس العزاء إلينا — وتوخت فى مدحك الإسهابا
لم ينح جازع عليك كما نا — حت ولا أطنب المحب وحابى
واعتراف «التاميز» ياسعد مقيا — س لما نال نيلنا وأصابا

وغرة هذه القصيدة هى الأبيات التى ينص فيها حافظ إبراهيم على أن روح الثورة لن يموت بموت سعد، وأن الأمة لن تصدّ عن الغاية بوعد أو وعيد:

ليت سعداً أقام حتى يرانا — كيف نعلى على الأساس القبابا
قد كشفنا بهديه كل خاف — وحسبنا لكل شىء حسابا
حجج المبطلين تمضى سراعاً — مثل ما تطلع الكؤوس الحبابا
حين قال «انتهيت» قلنا بدأنا — نحمل العبء وحدنا والصعابا
فاحجبوا الشمس واحبسوا الروح عنا — وامنعونا طعامنا والشرابا
واستشفوا يقيننا رغم ما نلـ — ـقاه هل تلمحون فيه ارتيابا
قد ملكتم فم السبيل علينا — وفتحتم لكل شعواء بابا
وأتيتم بالحاملات تراءى — تحمل الموت جاثماً والخرابا
وملأتم جوانب النيل وعداً — ووعيداً ورحمة وعذابا
هل ظفرتم منا بقلب أبى — أو رأيتم منا إليكم متابا
لا تقولوا «خلا العرين» ففيه — ألف ليث إذا العرين أهابا
فاجمعوا كيدكم وروموا حماه — إن عند العرين أسداً غضابا

فهذه الأبيات هى خير ما فى قصيدة حافظ، وقد خلت من معانيها قصيدة شوقى، وكان حافظ كثير الالتفات إلى المعانى التى ألف الزأر بها قبل عهد الاستقلال

ثم تحدث عن أخلاق سعد فقال:

تقتل الدس بالصراحة قتلاً — وتسقّى منافق القوم صابا
وترى الصدق والصراحة ديناً — لا يراه المخالفون صوابا
تعشق الجو صافى اللون صحواً — والضلون يعشقون الضبابا
أنت أوردتنا من الماء عذباً — وأراهم قد أوردونا السرابا

وعطف على أيامه مع سعد فى «بساتين بركات» فقال:

نم هنيئاً فقد سهرت طويلاً — وسئمت السقام والأوصابا
كم شكوت السهاد لى يوم كنا — فى «البساتين» نستعيد الشبابا
نهب اللهو غافلين وكنا — نحسب الدهر قد أناب وتابا
فإذا الرزء كان منا بمرمى — وإذا حائم الردى كان قابا

أما بعد فهذه ملامح من قصيدة شوقى وقصيدة حافظ فى تأبين سعد، وسنتكلم فى المقال المقبل عن قصائد العقاد والجارم ومطران

والله ولى التوفيق

زكى مبارك

نظرات في التربية:

اللعب وأثره في حياة الطفل

للأستاذ رفعة الحنبلي

لكل إنسان في هذه الحياة أهداف يرمي إليها ، لكنهم قلما يشتركون في هذه الأهداف ؛ إلا أن هنالك غاية واحدة يشترك البشر كلهم فيها . هذه الغاية هي السعادة .

إن هذه الغاية التي عرفها علماء النفس « بعامل اللذة » تكيف أعمال الإنسان، وتتحكم في تصرفاته ، وتدفعه إلى سلوك السبل التي توصله إليها فتمهد له حياة صحة وعيشة رخية

وفي الواقع أن هذه اللذة قد تختلف باختلاف البيئة والوسط وقد تتباين بتباين الجنس والعمر ، فاللذة التي تنساق إليها الفتاة أو المرأة هي غير اللذة التي يتجه إليها الفتى أو الرجل ، كما أن لذة الأطفال هي غير لذة المراهق والشيخ

بيد أن البيئة والوسط لهما أثرهما في توجيه هذه اللذة وتكييفها حسب النظم الاجتماعية والقوانين الأخلاقية ، والطرق التربوية التي يعيش الفرد في كنفها ويتفيأ ظلها ؛ ولذة الطفل تتمركز في لعبه المختلفة الأنواع ، فهي أولى رغائبه ، وقبلة أنظاره ، ومحط آماله ، وهدف أحلامه

***

والتربية الحديثة تقوم على تهيئة الوليد للمستقبل ، أي أنها تؤهله للحياة ، والتأهل للحياة إنما يكون في الاهتمام بميوله ، ومعرفة غريزته ، وتمهد حاجاته في دور طفولته الذي هو وقت نموه وتقدمه ، لذا كان من أقدس الواجبات على المرء أن يهتم بهذه المرحلة من حياة الوليد، وما تفتقر إليه من عناية

وما العناية إلا تهيئة أجواء من الحياة ، تسمح للوليد بالنمو الطبيعي في الجسم والعقل والخلق ، ولا يتوقف هذا النمو على ما يكتنفه من العوامل التربوية والاجتماعية ، وما يحف به من المناصر التهذيبية والأخلاقية وحسب ، بل يتوقف على ترك قوى الأطفال وغرائزهم وميولهم في جو حر طليق لا يقيده نظام ولا تحده إرادة ؛ والطبيعة هي الجو الطليق للطفل ، توجب عليه أن يعيش عيشة الأطفال ، وتلزمه أن يحيا حياتهم ، وتحمله على أن يلعب لعبهم ، من تلقاء نفسه ، وبكامل حريته ، كما تتطلب مصلحته ، وتقتضي غريزته

فالطفولة هي أهم الأدوار التي يمر بها الإنسان إذ تكون طبيعة الوليد سريعة الانفعال شديدة التأثر بما يعرض في دائرة حسه ، والتي يتأهب عقل الطفل خيها لقبول المؤثرات التي تمتزج في مزاجه الرخص ، فتبعث فيه صفات تختلف قوة وضعفاً تبعاً لتلك المؤثرات

إن العوامل التي لها الأثر العميق في تربية الوليد وتهذيبه كثيرة ، والعناصر التي لها النصيب الأوفر في تنشئته تنشئة تتلاءم مع غاية الحياة وفيرة ؛ على أن اللعب هو أهم تلك العوامل والعناصر في حياته ، فاللعب إنما هو استعداد للحياة كما يقول العلامة « كروس » . وقد ذهب المربي الكبير « فروبل » — وهو أول من ابتكر روضات الأطفال — إلى أبعد مما ذهب إليه زميله فهو يقول : « من خطل الرأي وعقم الفكر ، أن ننظر إلى اللعب كشيء لا وزن له ولا قيمة ؛ ولكن من حسن الرأي وبعد النظر ، أن ننظر إلى اللعب كعامل له حيويته ومؤثراته وغاياته . إن لعب الأطفال لأشبه بالبراعم لحياة الإنسان ، فإن كانت هادئة أو مضطربة ، نشيطة أو خاملة ، خصبة أو ماحلة ، مفعمة بالسعادة أو مغمورة بالألم ، تحمل رمز السلام أو صدى الحرب ، كل هذه تتصل اتصالاً وثيقاً باللعب التي تثمر الطفل مدة طفولته »

ولا بد لنا من أن نعرض نظريات اللعب المتعددة التي اختلف علماء النفس في أمرها وتفاوتت بحوثهم فيها ، ليقف الإنسان على عواملها ودوافعها

ذهب بعضهم إلى أن اللعب ليس إلا ظاهرة من ظواهر الراحة ، أو بعبارة أخرى ليس اللعب إلا فترة من الوقت يأخذ الجسم فيها قسطه من الراحة ، والفكر حظه من الهدوء ؛ ولا يسع المرء إلا أن يتساءل لماذا يطيب اللعب للانسان ، بعد أن يكون تعباً منهوك القوى ، متوتر الأعصاب ، أكثر مما تطيب له الراحة ؟ ألا نشاهد الأطفال يرغبون في اللعب ويلتمسونه فور نهوضهم من فراشهم ؟ والحيوان ألا تراه يلعب من الصباح حتى المساء دون أن يقوم بعمل ما ؟

وراح يزعم البعض وعلى رأسهم « شيلر » — وناصره بعد ذلك الفيلسوف الإنكليزي الكبير « سبنسر » — أن اللعب

يمثل فيضان القوة الزائدة فى الطفل ؛ ويملل ذلك أن القوى الحيوية تزداد عنده ازدياداً كبيراً فى وقت لا يمكنه أن يصرفها إلى أى عمل ذى أهمية ، فتتكتل هذه القوى ، وتنساب إلى الشعب التى تكونت — فيما مضى من الأيام — فى الجهاز العصبى ، فتحدث فى الطفل فيضاناً يدفعه إلى اللعب .

ولا ريب أن تكتل هذه القوى الفياضة بدفع الطفل إلى اللعب ، ويساعده على التبسط به ، ولكننا نجد أحياناً بعضاً من الأولاد — على الرغم من التعب الذى يستولى عليهم من جراء أعمالهم — لايزالون يلعبون لعبهم حتى إلى وقت إغفائهم ! وقد نشاهد أيضاً أن بعض المرضى من الأولاد ، يفزعون إلى ألاعيبهم ، يلعبون بها ويعبثون ، قبل إبلالهم من مرضهم وحتى قبل استكمالهم قواهم ونشاطهم !

ويرد « ستانلى هول » أسباب اللعب إلى عوامل وراثية بعيدة Atavisme خلفتها الأجيال الماضية . فيقول : إن اللعب ليس إلا قوى بدائية للانسال السالفة ورثها الطفل واحتفظ بها . وهذا الرأى يطابق ما ذهب إليه « هيكل[1] » من أن الطفل يمثل فى لعبه ما مرّ على الإنسان من الأدوار فى نشوئه

وما اللعب فى نظر « هول » إلا عبارة عن ارتياض ضرورى لإخفاء بعض الوظائف التى أصبحت عديمة الفائدة ؛ فالهدف الذى أراده من نظريته هذه هو أن اللعب ليس وسيلة للقضاء على هذه الوظائف غير النافعة ، بل للتأثير فى غيرها من الوظائف الأخرى وتكييفها وإعدادها لقبول حياة جديدة

على أن أهم تلك النظريات التى فازت بإعجاب قسم كبير من علماء النفس هى نظرية « التدريب الإعدادى » Théorie de l'exercice préparatoire ، وأول من فكر فيها وتعمق فى دراستها العالم الكبير Karl Groos عام ١٨٩٦ فى كتابه « ألعاب الحيوان » Les Jeux des animaux

أراد هذا العالم أن يتجه فى درس اللعب إلى ناحية جديدة — بعد أن لمس عقم نظريات زملائه — فولى وجهه شطر الناحية البيولوجية من بحثه ليقف على دقائقها وليعرف كنه أسرارها . ولقد وفق « كروس » فى نظريته هذه توفيقاً كبيراً ، حتى أنه أدرك القوى العقلية وتفهم اضطراباتها ، لا عند الإنسان فحسب ، بل عند الحيوان أيضاً

(١) Hækel

ولو أردنا أن نبحث ، على ضوء هذه النظرية القوى الفعالة للعب ، لوجدناه يختلف جد الاختلاف فى جماعة الإنسان ، ويتباين بتباين أنواع الحيوان . فالهرة الصغيرة تقبع فى ركن من أركان الحجرة ، منبسطة اليدين ، مغمضة العينين ، مرهفة السمع ، حتى إذا ما اهتزت أمامها ورقة ما أو سحبت من أمامها ، تراها قفزت عليها قفزة سريعة ، وداعبتها بيديها فترة من الزمن ، ثم مزقتها بأنيابها ، فكأنها بعملها هذا تستعد للحياة وتهيئ نفسها للقفز على فريستها فى المستقبل . والجدى الذى يمارس النطاح منذ صغره يعد نفسه للحياة التى عرفت عنه ، فلكل حيوان غريزة خاصة به ، أتته عن طريق الوراثة البعيدة أو القريبة من الفصيلة التى ينتسب إليها ، فتظهر هذه الغريزة واضحة جلية ـ وإن كانت فى بدئها ضعيفة إلى حد ما ـ منذ النشأة الأولى

وقد تتفاوت مدة نمو هذه الغرائز فى الحيوان بتفاوت درجته فى سلم الحياة ، فالحيوانات الدنيا تحتاج إلى مدة أكثر مما تحتاجه الحيوانات العليا ، لاستكمال نمو غرائزها واستيفاء قوتها ؛ وقلما نجد غريزة فى حيوان تتفق مع غريزة فى حيوان آخر ، فالهرة تقفز على الورقة إذا ما اهتزت أو تحركت ، أما الجدى فلا يقفز عليها مهما اهتزت وتحركت ، ولكنه يتأهب للنطاح حالاً إذا وجد أمامه جدياً آخر ؛ فالهرة تجهل النطاح ، كما أن الجدى يجهل القفز ، لأن لكل منهما غريزته الخاصة به

كذلك نرى للانسان غرائز بقدر ما لديه من أنواع اللعب : فغريزة للصيد ، وثانية للقتال ، وأخرى للمداعبة وغيرها . . .

على أن هذه الغرائز الموروثة لا يكتمل نموها ولا تستوفى حيويتها إلا باكتساب واقتباس جديدين ؛ ولن يفوز الانسان بهذين العنصرين الهامين إلا بعد ممارسة اللعب الذى من شأنه أن يعد المرء للحياة الصحيحة . لذا وجب على الإنسان — وهو أكثر الحيوان طفولة — أن يلعب ، ويلعب كثيراً سنين عديدة ، كى يمسى فيما بعد إنساناً جديراً بالحياة ؛ إذ أن اللعب ، فى الواقع ، يروض بعض قواه الفعالة ، ويروض معها بعض وظائف أعضائه ، ويسمو هذا الترويض بالإنسان إلى ما يصبو إليه من أهداف سامية وغايات نبيلة

هذه هى أهم تلك النظريات[1] التى أشبعها علماء النفس

(١) اعتمدنا فى بحث نظريات اللعب على كتاب العلامة (كلابارد) « نفسية الطفل وعلم التربية التجريبى »

دراسة وبحثاً ، ولابد لنا من الرجوع إلى البحث عن أثر الألعاب في حياة الانسان بعد أن أتينا على ذكر عواملها المتعددة

والواقع أن اللعب لا يعني الراحة ولا التسلية ؛ وإنما هو عمل حيوي للانسان ، له الأثر الأكبر في حياته ، كما أن له خصائص بيولوجية ، تسهل على المرء سبل التقدم ، وتمهد له طريق الحياة

فالرغبة في اللعب إنما تنبثق من الغريزة الكامنة فيه ، فيختار من الألعاب ما يتفق وميوله ورغائبه وتساعده على بلوغ هدفه . على أن هذه الرغائب وهذه الميول تتنوع بتنوع العوامل الاجتماعية والخصائص الفردية ، إذ تعبر عما يختلج في نفسه من هذه الخصائص وتفصح عن نفسيته بأجلى مظاهرها

وأخذت التربية الحديثة تواجه هذه الميول وتتعهد هذه الخصائص ، فتوجهها إلى النواحي الاجتماعية والأعمال الانسانية التي قد يقوم بها المرء في المستقبل

يقول (فرويل) : « ليس للمشرف على الوليد إلا أن يوجه تصرفاته ، منذ نعومة أظفاره ، في الوقت الذي يرتع ويلعب بين ألاعيبه الكثيرة ، إلى معرفة خصائصها ، وأن يظهر له أثرها في نفسيته وخلقه » وهي إلى ذلك تمتاز بأنها العامل الأقوى في نموه العقلي والجسدي

فالأبحاث التي قام بها العلامة الفرنسي Binet أكدت لنا أن هنالك اتصالاً وثيقاً بين النمو الجسدي والنمو العقلي ، أو بالأحرى بين صحة الجسم ونزوة العقل ووثبة الفكر . لذلك نرى أن الألعاب التي يتهالك عليها الطفل ، في بدء حياته ، والتي يختلف إليها بين آونة وأخرى تساعده على هذا النمو الذي أشار إليه « بينه » والذي يلازمه طول حياته الأولى ؛ فالاعتناء بالألعاب هو وسيلة لتحسين العقل والجسم معاً

يحتاج الوليد ، في الواقع ، إلى كثير من اللعب ، فالقوانين المدرسية التي تحتم عليه الصمت والجمود ، لا تتلاءم مع حياته ، وما يتطلبه من حرية ، وما ينشده من استقلال . لذلك أدرك « فرويل » أن المعهد ليس هو البيئة الخاصة التي تلائم الوليد ، لأنها تقيد حريته وتفقده حيويته وتخمد نشاطه . وهذا ما حداه إلى إنشاء روضات الأطفال يلعبون ويغنون ويرقصون في جو حر طليق يتعهدهم كما يتعهد البستاني نبات روضته

فالنظم المدرسية الحديثة حتمت على المربين تعهد الأطفال تعهداً كلياً ، وإغراءهم على اللعب بالألاعيب وبشتى الوسائل ، وترغيبهم فيها بمختلف العوامل ، مما حداهم إلى وضع مقادير وفيرة من الألاعيب الجميلة بين أيديهم ، يختلفون إليها برغبة وشوق ، ويتصرفون بها بحرية تامة . والطفل لن يكون طفلاً إذا لم يفزع بين حين وآخر إلى اللعب لأن طبيعته تقتضي ذلك

وقد يثير منظر هذه الألعاب فضول الطفل ، فيدفعه إلى تفهم أسرارها والوقوف على دقائقها ، وما يحيط بها من إبهام وغموض ، فيتفتح عقله على آفاق جديدة ، وتنكشف نفسه على أجواء طريفة ، ويتقوى جسمه وتتصلب أعضاؤه ، فيتمتع بالعقل النير ، ويتمتع بالجسم القوي ، ويتزود بالمعرفة الواسعة

لذا وجب على المربي أن يُذكي غريزة اللعب في نفس الولد ، ويستحث رغباته ، ويلهب فضوله للاستقراء عن خصائص هذه اللعب والوقوف على ماهيتها ، لأن هذا الاستقراء هو في الواقع من أهم العوامل التي لها الأثر الأكبر في إيقاظ القوى الفكرية فيه ، ورفع مستواه الأدبي والعقلي والخلقي ؛ بل يجب على المربي ألا يهمل رغبات الطفل — التي هي خلجات نفسية وقتية — وألا يتجاهل فضوله الذي يرتبط إلى حد ما بالبيئة والوسط والعمر. فالإهمال يورثه قلة المعرفة ، والتجاهل يخمد فيه الدافع النفسي للعمل الذي من شأنه أن يرسم لنا خطوط نفسيته ويبين ما يجول في خاطره

هذا إلى أن التربية الجسمية والخلقية والعقلية تتصل اتصالاً مباشراً بالألعاب التي يتسلى بها الأطفال ؛ وقد تختلف هذه الألعاب باختلاف حداثتهم ، وقد تتباين بتباين عواملها ، إلا أن الهدف الأسمى والغاية المثلى منها هي تربية الوليد تربية سامية صحيحة .

فاللعب يرمي إلى إنماء الجسم وتقوية البدن ، وإلى غرس الفضيلة في النفس ، وتزويد العقل بشتى المعارف والعلوم ، فصفاء القلب ، وجمال الأدب ، وطيب الخلق ، وإظهار التعاطف ، وإبراز العادات الحسنة ، وتقوية الميول الاجتماعية ، وجميل المعاملة ، وحسن المعاشرة ، وحب الإنسانية ، إنما تكتسب عن طريق الألعاب

ولما كان الوليد يميل بطبيعته إلى العمل ويندفع بغريزته إليه — واللعب أول مظهر من مظاهر العمل — كان هدف التربية الحديثة أن تصاغ أعمال التربية الأولى في صور الألاعيب ، معدة لتصريف غرائز الطفل وتوجيه ميوله ورغائبه توجيهاً يعود عليه بالنفع في مستقبل حياته ، فاللعب إذاً هو بمثابة وسيلة هامة لتكوين الطفل تكويناً أدبياً . فلينست « الحركات والألاعيب التي

يأتيها الطفل ، يقصد بها إشباع الرغبات ، وسد أطماع النفوس وحسب ، ولكنها مختارة لغايات تهذيبية وأخلاقية وأدبية » .

ولما كانت التربية تبتدئ عملها منذ الدقيقة الأولى التي يبصر الطفل فيها النور ، والتي تتمشى جنباً إلى جنب مع الطفولة ، وتستمر معه طوال حياته ، وجب أن تعاون التربية الطبيعة على الوصول به إلى الغاية المقدرة له ، ويتوقف نجاح نشأة الطفل على قوة بدء التربية . لذا كانت العناية بالتربية الأولى في دور الطفولة التي هي أهم أدوار الحياة ، تفوق كل عناية ، وهذا ما عناه Perez في قوله : إن التربية تبتدى منذ المهد

وماذا يراد بالتربية الأولى ؟ ... أليست هي التي ترمى إلى « إنماء قوى الأطفال الجسمية ، وتمرين حواسهم وإيقاظ مداركهم ، وحملهم على تعرف مظاهر الطبيعة حولهم ، ووقفهم على أسرار الاجتماع ، والتعاون على الأعمال ، وتوجيه نفوسهم إلى النافع في الحياة ؟ »

أليست هي التي ترمى إلى إنماء الجسم وإيقاظ العقل وإحياء القلب ؟ أليست هي التي تحتم جعل أساليب التعليم سائغة شائقة ، تبعث في نفس الوليد الغبطة ، وتنفخ فيه أسباب المرح ، وتملأ قلبه بهجة وسعادة ؟ ...

ليس اللعب في نظر المربين إلا وسيلة للتربية الأولى التي من شأنها أن تؤدب النفس ، وتهذب الخلق ، وتقوم الطباع ، وتوجه الغرائز . وما اللعب إلا العامل الأقوى في تهيئة تلك الأجواء التي تتطلبها التربية ، وتلك الآفاق التي ترغب في إحاطة الوليد بها ؛ فاللعب من أهم الأحداث في حياته — إن لم يكن أهمها — لأن من خصائصها التهذيب والتأديب والتثقيف ، فضلاً عن تفتح النفس لألوان من المعرفة ، وانفساحها لصنوف المؤثرات والأحاسيس ، وتهيؤها للحياة المقبلة

وهو إلى ذلك — أي اللعب — يمثل دوراً اجتماعياً من الطراز الأول في الهيئة الاجتماعية . وإذا ما رجعنا إلى رأى العالم كار Karr نجده يقول : إن الألعاب لها الأثر الكبير في إنماء شعور التكتل عند الفرد ، وهذا التكتل له الشأن الخطير في حياة الإنسان وفي رفع المجتمع البشري . وقد ذهب هذا العالم الكبير إلى أبعد من هذا الحد ، فزعم أن كثيراً من الألعاب تساعد المرء على التخلص من بعض الغرائز الموروثة غير الاجتماعية والتي يتضرر المرء منها ، إن هي بقيت متأصلة فيه

غير أن هذا التخلص لا يراد به سوى التسامي بهذه الغرائز وتوجيهها توجيهاً اجتماعياً سامياً ، فالانفعالات في الوليد أوجدوا لها علاجاً اجتماعياً أطلقوا عليه « التسلية النفسية » التي تتسامى بغرائزه غير الاجتماعية ، ووقت انفعالها إلى النواحي الاجتماعية كتربية الحيوان وتمهد الأزهار وغيرها

وقد تأثر العلم قديماً ولم يزل يتأثر حتى الآن ، بالألعاب التي يتلهى بها الإنسان ، وبفضل هذه الألعاب اكتشفت أول خصائص الكهرباء ، وظهرت الدراجة ، وحلت بعض المعضلات وتمتع العالم بشتى الاختراعات ومختلف الاكتشافات

إن الألعاب التي يلعبها المرء والملاهي التي يلهو بها هي عوامل لها الأثر في ترقيته وتكوين خلقه وميوله وتحديد وجهة نظره في الحياة ، فهي عوامل في تربيته تؤثر فيه أثراً مستمراً ، فتشكل أخلاقه وعقله من يوم يحل في هذا العالم إلى يوم يغادره » فهي وسيلة لتأديب نفسه وتهذيب خلقه وتنمية ذوقه

وإذا ما غمرنا الطفل بالألعاب الكثيرة ووسائل اللهو فكأننا غمرناه في بيئة هي أسبقها إلى التربية الحقة ، وأدناها غاية من البيئات الأخرى .

رفعة الحنبلي

(بيروت)

كليلة ودمنة

نقد وتعليق

للأستاذ عبد السلام محمد هارون

« كتاب دهرى الصنعة ، متقادم الميلاد » ، أفرغت فيه حكم الدنيا ومواعظ الأجيال ، وكان عجباً عاجباً وأدباً خالداً ! !

وكان اختيار مطبعة المعارف لهذا السفر الجليل أن يكون تذكاراً لعيدها الخمسيني — اختياراً موفقاً كل التوفيق ، فبرهنت بذلك أنها تحسن هذا الأمر وتجيده

وأما الرجل الذى وكل إليه الاضطلاع بعبء نشر الكتاب وتحقيق مواضع الشبه فيه والحكم عليها، فرجل هدك من رجل !

فالدكتور عبد الوهاب عزام قطب من أقطاب الثقافة العربية كما هو من الثقافة الفارسية . فكان بذلك خير من يتصدى لمثل « كليلة ودمنة » ، لينشره على الناس فى هذا الثوب الرائع الفائق ، وليجهد نفسه فيه هذا الإجهاد المثمر الطيب

وإنى لأبادر فأهنئ الأستاذ عزام تهنئة صادقة ، لما أحيا « كليلة ودمنة » على نحو يغتبط له ابن المقفع فى مثواه ، ويغتبط له أيضاً ذلك الجندى المجهول الذى صنع للناس هذا الكتاب فى أصله الهندى ، ثم تركه يسير فى الدنيا كريماً عزيزاً ، تتهاداه اللغات ، وتتنازعه اللهجات ، ويغتبط له كذلك أنصار الأدب العربى فى المشرقين والمغربين

كما أزجى تهنئتى إلى رجال مطبعة المعارف ، منوهاً بهذا الفن العجيب الذى أبرز الكتاب تحفة تاريخية ناطقة . وإن كان للنشر أدب خاص ، فهذا الكتاب منه قطعة أدبية عالية ؛ وإن للألواح الثلاثة عشر التى رسمها المصور « رومان ستريكالفسكى » لأثراً كبيراً فى إحداث هذا الجو الفنى البهيج

وقد صنع الأستاذ عزام لهذا الكتاب مقدمة بلغت من النفاسة مبلغاً ، وحوت من الفوائد الكثير ؛ فهو قد عرض لتاريخ الكتاب ، وبين أن النسخة العربية « أصل لكل ما فى اللغات الأخرى ، حاشا الترجمة السريانية الأولى ، فقد فقد الأصل الفهلوى الذى أخذت عنه الترجمة العربية ، وفقد بعض الأصل الهندى الذى أخذت عنه الترجمة الفهلوية واضطرب بعضه ، فصارت النسخة العربية أساً يرجع إليها من يريد إحداث ترجمة أو تصحيح ترجمة قديمة ، بل يرجع إليها من يريد جمع الأصل الهندى وتصحيحه »

ثم تحدث عن طبعات الكتاب ، فذكر :

١ — طبعة المستشرق دى سامى التى كانت طبعته أصلاً من أصول الطبعات المصرية الكثيرة ؛ وهى نسخة ملفقة من عدة نسخ

٢ — ثم طبعتى اليازجى وطبارة ، وهما ملفقتان من طبعة دى سامى ومخطوطات ومصورات أخرى

٣ — ثم طبعة شيخو ، وهى أول طبعة فى اللغة العربية تقدم للقراء نصاً كاملاً غير ملفق من كتاب « كليلة ودمنة » وأصلها مخطوط سنة ٧٣٩ هـ ؛ وقد طبعه شيخو كما هو لم يصحح أغلاطه ولم يوضح غامضه ، ليكون أمام المستشرقين صالحاً للمقارنة والنقد

ثم تحدث عن النسخة التى نقلت عنها الطبعة الحديثة ، وهى فى مكتبة أيا صوفيا باسطنبول كتبت سنة ٦١٨ ، فهى أقدم من كل المخطوطات التى وصفها المستشرقون ، وأقدم من نسخة شيخو المكتوبة سنة ٧٣٩

وهذه النسخة مفعمة بالتحريف والتصحيف والأسقاط وخطأ الرسم ؛ وتستطيع أن تعد فى النموذج المصور من الصفحة الأولى فقط [1] نحو اثنى عشر تحريفاً وتصحيفاً

وهذا يدل على مقدار الجهد الهائل الذى بذله الأستاذ عزام فى تحقيق هذه النسخة وتقريبها إلى السلامة

ونحن فى هذا الصدد نأخذ على الأستاذ أنه لم يتوخ فى هذه الناحية ما يقتضيه النشر العلمى من إثبات الأصل والتنبيه عليه ؛ فقد يكون للقارئ وجه فى التصحيح غير الذى ارتضى . نعم ، إن الأستاذ قد أثبت بعض كلمات الأصل فى التعليقات التى ألحقها بالكتاب ، لكنها من القلة بحيث لا تغنى شيئاً فى معرفة أصل الكتاب والوقوف عليه

وأمامنا جهود المستشرقين ناطقة بمدى تقديرهم لهذه الناحية التاريخية الفنية ، فلا تكاد تجد كتاباً نشروه إلا وقد أثبتوا أصله أو أصوله إن كان ذا نسخ مختلفة

وكتاب مثل كتابنا هذا ، لبس من جلال التاريخ ما لبس ، جدير بما ذكرت من وجوب بيان أصله للرجوع إليه ، ووجوب مقارنة نسخه بعضها ببعض

(١) ص ٢٣ من المقدمة

ولغة ابن المقفع فى « كليلة ودمنة » لغة عالية ، تعلو على المتأدب والأديب أيضاً ، فهى محتاجة إلى توضيح وتقييد وبيان . فكان من المستحسن أن يصنع الأستاذ لها شرحاً أو معجماً يلحقه بنهاية الكتاب ، كما فعل من قبلُ الخورى نعمة الله الأسمر ، حينما نشر ترجمة ابن الهبارية لكليلة ودمنة ، مع أن لغة هذا النظم فى مستوًى دون مستوى ترجمة ابن المقفع

على أن الأستاذ قد أحسن صنعاً بما حقق من الأعلام الفارسية والهندية ، مما يشهد له بتمام البراعة فى ذلك

***

قرأت نسخة الأستاذ عزام ، ونعمت — كما نعم غيرى — بما فيها من دقة وجمال ، فطالعنى فيها خير كثير ومقدرة فنية عظيمة ، كما ظهرت لى بعض هنات أحببت أن أنبه عليها ، وبدا لى بعض الرأى فى عبارات الكتاب ، فآثرت أن أنشره راجياً أن يباعدنى العَنتُ ، ويفارقنى التكلف ، وأن يسعفنى فى ذلك الحق

١ — فى الضبط اللغوى

١ — ص ٣٦ س ٦ : (كالعظم المتعرِّق) بكسر الراء ، صوابه : (المتعرَّق) بفتح الراء المشددة . يقال عرق العظم يعرقه عرقاً ، وتعرقه ، واعترقه : أكل ما عليه من اللحم

٢ — ٨١ : ٥ ، ٦ : (ولكن النفس الواحدة يفتدِى بها أهلُ البيت ، وأهل البيت تفتدِى بهم القبيلة ، والقبيلة يفتدى بها المصر) . الوجه : (يُفتَدَى) و (تفتَدَى) بالبناء للمجهول فيهما . فأهل البيت ، وكذا القبيلة والمصر لا يفعلون الافتداء ، وإنما يفعل بهم ذلك غيرهم فهم مفتَدون . ومن ذلك ما قال كعب بن سعد الغنوى[1] :

فلو كان حىٌّ يفتَدى نفديتُه ... بما لم تكن عنه النفوس تطيب

٣ — ٨٧ : ٦ : (ولا تغتر إليه) ، ولا يقال (اغتر إليه) بل (اغتر به) . على أن جو العبارة يؤذن بأن صحتها : (ولا تقترب إليه) فليس فيما سبقها من الكلام ما يشعر بأن « شنزبة » قد يتعرض للاغترار أو يقع فيه

٤ — ٩١ : ١٢ : (وندفن بقيتها مكاناً حريزاً) . وهذه عبارة غير صحيحة . والصواب : (فى مكان حريز) فإن الفعل (دفن) لا يتعدى إلى ثان إلا بالحرف (فى) . وليس

(١) أمالى القالى (٢ : ١٤٩)

هذا أيضاً من المواضع التى يكون فيها لفظ (مكان) ظرفاً من الظروف المكانية ؛ فإن اسم المكان الصالح للظرفية إما أن يشتق من حدث بمعنى الاستقرار والكون فى مكان ، أوْ لا . والثانى لا ينتصب على الظرفية إلا بالفعل الذى ينتصب به على الظرفية المختص من المكان كدخلت ونزلت وسكنت . وذلك نحو المضرب والمقتل والمأكل والمشرب

والأول (ومنه لفظ مكان) إنما ينصبه على الظرفية أمران : أحدهما الفعل المشتق مما اشتق منه اسم المكان نحو قمت مقامه ، وجلست مجلسه، وأويت مأواهُ؛ وثانيهما كل ما فيه معنى الاستقرار وإن لم يشتق مما اشتق منه ، نحو قعدت موضعك ، ومكان زيد ، وجلست منزلَ فلان ، ونمت مبيته ، وأقمت مشتاه . وما ليس فيه معنى الاستقرار لا ينصبه ، فلا يقال كتبت الكتاب مكانك ، وقتلته مكان القراءة ، وشتمتك منزل فلان[1]

وليس « الدفن » من الاستقرار فى شىء ، فلا ينصب لفظ « المكان » على الظرفية المكانية

وقد جاء فى نسخة بولاق[2] ص ٤٩ : « وندفن الباقى فى أصل هذه الشجرة ، فهو مكان حريز »

٥ — ٩٥ : ١٣ « وبلاء يضيِّع عند من لا شكر له » البلاء هنا بمعنى الإنعام . وفى ترجمة ابن الهبّارية ص ٩٥ :

ما أضيع النعمة عند الكافر ... وأقبح الخلّة عند الهاجر

وبين اللغويين خلاف فى أن يكون البلاء بمعنى الإنعام ؛ فقال بعضهم : « الإبلاء : الإنعام . والبلاء : الإشقاء والإتعاس » . أما الإبلاء بمعنى الإنعام فلا خلاف فيه . ومنه قول زهير[3]

رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم ... فأبلاهما خير البلاء الذى يبلو

أى صنع بهما خير الصنيع . والحق أن الإنعام إنما هو الإبلاء لا البلاء . ومنه الحديث : « من أُبلى فذكر فقد شكر » وحديث كعب بن مالك : « ما علمت أحداً أبلاه الله خيراً مما أبلانى »[4]

وقد احتج من زعم أن « البلاء » يكون أيضاً بمعنى الإنعام بقوله تعالى : « وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين » وقوله : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ورُدّ عليه بأن البلاء فى الآية الأولى

(١) انظر همع الهوامع (١ : ١٩٩) وشرح الرضى للكافية (١ : ١٦٩ — ١٧٠)

(٢) كليلة ودمنة طبع بولاق سنة ١٢٥١

(٣) فى ديوانه ٢١

(٤) نهاية ابن الأثير ولسان العرب

بمعنى الاختبار لا الإنعام . وكذلك « نبلوكم » أريد بها : « نختبركم »

وجاء فى نسخة بولاق ص ٥١ : « وحِباء يصطنع عند من لا شكر له » . والحباء ، بالكسر : العطاء

٦ — ٢٢١ : ١٥ : « ولكن إيش الفائدة فيها » بكسر الهمزة ، وهذا ضبط عامى ؛ والصواب : (أَيْشٍ) بفتح الهمزة وتنوين الشين المكسورة ، وأصلها : (أيّ شيء ؟) خفّفت بحذف الياء الثانية من (أيّ) وحذف همزة (شيء) بعد أن نقلت حركة الهمزة إلى الساكن قبلها ، ثم أعلّت إعلال المنقوص . ونحوها فى ذلك (وَيْلُمِّهِ) ، أصلها : (ويلٌ لأمّه) ، حذفت لام (ويل) وهمزة (أمّ) . قال المتنخل الهذلى[1] :

ويلمــه رجلاً تأتى به غبناً ... إذا تجرّد لا خال ولا بخلُ

وقال ذو الرّمة[2] :

ويلمّها روحةً والريح معصفةٌ ... والغيث مرتجزٌ والليل مقترب

وقال علقمة بن عبدة[3] :

ويلم أيام الشــباب معيشةً ... مع الكثر يعطاه الفتى المتلف النّدى

قال ابن السّيد فى الاقتضاب[4] : « حذف لام ويل وهمزة أمّ ، كما قالوا أيشٍ لك ، يريدون : أى شيء ؟ » . وقال الخفاجى فى شفاء الغليل : « أيش بمعنى أى شيء خفف منه . نص عليه ابن السيد فى شرح أدب الكاتب ، وصرحوا بأنه سمع من العرب . وقال بعض الأئمة : جنّبونا أيش ؛ فذهب إلى أنها مولدة . وقول الشريف فى حواشى الرضى أنها كلمة مستقلة[1] بمعنى أى شيء وليست مخففة منها ، ليس بشيء . ووقع فى شعر قديم[2] أنشدوه فى السير :

من آل قحطان وآل أيش »

قال السهيلى فى تفسيره : « وأما آل أيش فيحتمل أن تكون قبيلة من الجن المؤمنين ينسبون إلى أيش . فإن يكن هذا وإلا فله معنى فى المدح غريب . تقول فلان أيش هو وابن أيش ! ومعناه : أى شيء عظيم ؛ فكأنه أراد من آل قحطان ومن المهاجرين الذين يقال فيهم مثل هذا ، كما تقول : هم وما هم ! وزيد وما زيد ، وأى شيء زيد ! وأيش فى معنى أى شيء كما يقال ويلمه فى معنى ويل أمه ، على الحذف وكثرة الاستعمال . وهذا كما قال هو : فى جيش وأى جيش ! »

(له بقية) عبد السلام محمد هارون

(١) أدب الكاتب ١٨٣ سلفية والاقتضاب ٣٦٣
(٢) خزانة الأدب (٣ : ٢٤٨ سلفية)
(٣) الخزانة (٣ : ٢٠٣ سلفية)
(٤) الاقتضاب ٣٦٥ . وانظر أيضاً تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة للجواليقى ص ٤٧

(١) فى الأصل : « مستعملة »
(٢) هــذا وهم . والصواب أنه سجع كاهن . وقد ذكره السهيلى فى (١ : ١٣٨) . وهو قول خطر الكاهن : « والحياة والعيش ، إنه لمن قريش ؛ ما فى حلمه طيش ، ولا فى خلقه هيش ، يكون فى جيش ، وأى جيش ، من آل قحطان وآل أيش »

الحروب الصليبية

للأستاذ ر . التميمى

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

تطورات الحركة الصليبية

لقد كانت الغاية الأولى من إشهار الحرب الصليبية امتلاك الأرض المقدسة وجعلها خاضعة لحكم مسيحى ؛ فلما ظهر قواد كبار فى الشرق الإسلامى أمثال : نور الدين وصلاح الدين ، ورأوا مملكة اللاتين لم تنشأ فى الشرق إلا بسبب تخاذل المسلمين وتفرقهم ، أخذوا يستعدون لمطاردتهم والقضاء عليهم وهيأوا لذلك جيوشاً مدربة تطورت على أثرها الحركة الصليبية ودب الضعف فى جنباتها وفى نفوس منظميها وقوادها .

ولقد تطرق إليها الفشل أيضاً حينما أخذ البابوات يقاتلون آل هوهن شتاوفن وينازعونهم الحكم فى جنوب إيطاليا وشمالها ، فتجزأت قواتهم وانصرف الجانب الأكبر من عملهم وتفكيرهم إلى إضعاف قوة مسيحية كان عليهم أن يوجهوها إلى تعزيز الفكرة الصليبية إذا أرادوا استمرارها . ويقول بعض المؤرخين إن لأطماع الجمهوريات الطليانية دخلاً كبيراً فى التطورات التى طرأت على الفكرة الصليبية ، إذ أن البنادقة كانوا السبب الأكبر فى توجيه الحملة الرابعة إلى القسطنطينية وسائر ممتلكات البيزنطيين بدلاً من فلسطين وهم الذين كانوا يختلقون لأسباب مادية مع تجار جنوا فيضعفون باختلافهم الجبهة المسيحية . وقد أباحوا لأنفسهم التقرب من بعض ملوك المسلمين وأمرائهم ، فعقدوا مثلاً معاهدة تجارية مع الملك الكامل بينما كان العالم الغربى يستعد للحملة الصليبية الخامسة .

لقد تكرر حادث عقد المعاهدات مع المسلمين أكثر من مرة ، فعقدها كل من ملوك صقلية والأراغون وجمهورية جنوا قبيل سقوط عكا النهائى فى يد سلطان مصر . كل ذلك أضعف الروح الصليبية وحور اتجاهها وخفف كثيراً من حدتها .

أضف إلى كل ما تقدم النزاع الشديد الذى كان قائماً بين رهبان طائفتى الداوية والاسبتالية وانصراف كل فريق إلى الحط من كرامة الآخر واتهامه بأفظع التهم تأميناً لمنافع مادية ليس لها أية علاقة بمجد الصليب والحركة الصليبية .

ويفهم مما تقدم أن الحركة الصليبية قد باءت بالفشل التام بعد أن انتقلت القدس نهائياً إلى أيد إسلامية مع سائر البلاد الفلسطينية ، ثم تلا ذلك سقوط عكا وطرابلس وأنطاكية وهى آخر الحصون اللاتينية وطرد آخر صليبى من الديار الشامية فى أواخر القرن الثالث عشر . وبهذا السقوط وذلك الطرد ختم الفصل الأخير من الحركة الصليبية التى كانت ألفت لثاية نصرانية كبرى أقامت العالم الغربى وأقعدته وانتقل بسببها مئات الألوف من الفرسان والأمراء وسائر المحاربين إلى ساحات القتال فى الشرق ، ومنهم من قضى نحبه ، وفيهم من حكم أو أصبح ذا سلطان وإمرة بعد أن كان فى وطنه الفقير مفلساً لا يملك شروى نقير ؛ والجانب الأكبر عاد إلى موطنه يجر ذيول الخسران وعار الهزيمة .

ومجمل القول أن الحركة تطورت وباءت بالفشل حين تغيرت غايات المشرفين عليها والمنظمين لها ؛ فباباوات القرن الثانى عشر الذين كانوا يتمتعون بسلطان منقطع النظير كانوا وطدوا العزم على امتلاك القدس فاستغلوا سلطانهم وسؤددهم وقذفوا بالجماهير السذج نحو الشرق حيث امتلكوا ما أرادوا . أما باباوات القرن الرابع عشر فلقد كانوا على اختلاف دائم مع ملوك ذلك العصر الذين أخذوا يشعرون بقوتهم وينكرون على السلطة الدينية تدخلها فى شؤونهم الداخلية والسياسية ؛ وقد بلغ بأولئك الملوك وفى مقدمتهم فيليب الرابع ملك فرنسا وإدورد الأول ملك انكلترا أن رفضوا أوامر البابا وتغاضوا عن تهديداته ؛ وكان النزاع يدور حول فرض الضرائب على رجال الدين بعد أن كانوا معفين منها ؛ وكانت الكنيسة ترفض ذلك مدعية أن أرض الكنيسة موقوفة لخدمة الله فلا يصح أن يؤخذ عنها ضرائب . أما الملوك فإنهم كانوا فى أشد الحاجة للمال بسبب كثرة نفقاتهم ؛ لذلك طمعوا فى ممتلكات رجال الدين الواسعة ورغبوا فى فرض ضرائب عليها ؛ وفى ظروف كهذه ليس من المعقول أن يكون أمل فى تجديد حملات صليبية على نمط الحملات السابقة .

ومع كل ما تقدم فكر بعضهم عقب سقوط القدس

وسائر الإمارات اللاتينية نهائياً فى أيدى المسلمين ، فى تأليف حملة صليبية جديدة ، والسعى فى إحلال التفاهم محل التنابذ والتحاسد بين رهبان الداوية والاسبتالية . وقد كان فكر فى هذا الأمر فى مجمع ليون المنعقد سنة ١٢٤٥ ، وتقرر القيام به أيضاً فى مؤتمر ڤينا الدينى سنة ١٣١١ ؛ على أن رغبته فى التوفيق بين هؤلاء الرهبان لم تتحقق وانتهى الأمر بأن قضى على هيأة الداوية وصادر ملك فرنسا فيليب الرابع أملاكها وأموالها بعد أن تقاسمها مع البابا . أما رغبة تأليف حملة صليبية جديدة فلم يلتفت إليها حينئذ سوى بطرس الأول ملك قبرص الذى كان يحكم فى أواسط القرن الرابع عشر ؛ فلقد أنشأ جمعية دعاها جمعية السيف وغايتها تخليص القدس ، ثم أرسل وفداً إلى غربى أوربا قام بالتبشير والدعاية لتأليف حملة صليبية جديدة فلم ينجح ، فأرسل بطرس أسطولاً اعتدى على شطوط سوريا ومصر وعاد للجزيرة غانماً . وحين مات بطرس هذا أوصى بوجوب متابعة الدعاية لحملة صليبية . واعتباراً من سنة ١٣٣٠ ارتدت الحركة الصليبية حلة جديدة لم تعرف من قبل ، فبينما كان الصليبيون حتى الآن يهاجمون كلما سنحت الظروف بلاد الاسلام فى الشرق وأهمها سوريا ومصر ، انقلبوا الآن إلى مدافعين ، وأضحى خصمهم الأتراك العثمانيين بدل العرب والأكراد والأتراك من سلاجقة ومماليك . . .

لقد جاء الأتراك العثمانيون إلى أوربا الشرقية سنة ١٣٠٨ م بعد أن أنشأوا ملكا واسعاً لهم فى آسيا الصغرى فى فجر القرن الرابع عشر وبنوا مجدهم وسطوتهم الحربية بجيش مدرب ومجهز أحسن تجهيز دعوه بجيش الإنكشارية (الينيشرية) ومعناها الجيش الجديد، فأخذوا يهاجمون به البيزنطيين ويتغلبون عليهم، ويدمرون لهم الحصن بعد الحصن ، ويقهرون الجيش تلو الجيش ، حتى باتوا على مقربة من عاصمتهم . هذا من جهة ؛ ومن جهة أخرى هاجموا فرسان الاسبتالية فى رودس وآل لوزينيان فى قبرص ؛ فذعر العالم المسيحى لهذا الخطر الاسلامى الجديد ، وهب الباباوات ينفضون عنهم غبار الخمول والسكنة ؛ ويحاولون تجديد جبهة صليبية قوية تقف فى وجه أولئك الأتراك الأقوياء ، وظلوا يثابرون على حشد الجهود تلو الجهود ، وأخذ الناس بالنعرة الدينية إلى أن وصلوا فعلاً إلى تأليف حملة قوية من البنادقة والقبارصة وفرسان الاسبتالية وكلهم باتوا مهددين ؛ فجاءوا بأسطولهم المتحد وامتلكوا صرفاً أزمير سنة ١٣٤٤ ؛ إلا أن هذا الظفر لم يكن ليؤثر فى نشاط الأتراك وتقدمهم فلقد واصلوا تجاحهم فى البلقان وامتلكوا مدينة فيليبية البلغارية ؛ وعلى أثر ذلك جاءت حملة صليبية واشتبكت مع جيش السلطان بايزيد الأول فانكسرت شر كسرة

وفى سنة ١٤٣٩ تألفت حملة صليبية أخرى من المجريين والبولونيين تحت رياسة قائد ترانسيلوانى ممتاز يدعى يوحنا هنياد وحاربت السلطان بايزيد الثانى وتغلبت عليه ؛ إلا أنها لم تلبث أن غلبت على أمرها ، فكانت هذه آخر حملة جردتها أوربا المسيحية على الأتراك المسلمين

وفى سنة ١٤٥٣ ملك الأتراك مدينة القسطنطينية، وبامتلاكها قضوا نهائياً على الأمبراطورية البيزنطية . وعلى أثر ذلك قام البابا بيوس الثانى ونشر دعاية واسعة النطاق لحملة صليبية وقاد طائفة من المحاربين لبت نداءه إلى مدينة أنكونا الطليانية ، وكان يريد أن يزحف بها على البلقان ليقاتل الأتراك ؛ إلا أن أفراد الحملة انفضوا من حوله فحزن البابا لتلك النهاية ومات متأثراً غاضباً .

وبعد ذلك لم نعد نسمع بحملات تحمل اسم الصليبية وانتقلت مهمة منازلة الأتراك المسلمين إلى مُلوك أوربا الحديثة وإلى جيوشها المنظمة

وقبل الانتهاء من هذا الفصل لابد لنا من القول بأن الحركة الديموقراطية قد أثرت كثيراً فى عقول الناس وفى طريقة التفكير الأوربى بالمسلمين ؛ فبينما كان هم الباباوات وسائر رجال الدين ومن ورائهم الملوك والاصراء والفرسان والعامة خلال القرون الوسطى هو القضاء التام على الديانة الإسلامية وامتلاك بلاد المسلمين أخذت الاحوال تتبدل منذ عهد اليقظة إلى أن حل القرن الثامن عشر ، فظهر فيه حكماء وفلاسفة بشروا بحرية الأديان وبمبادىء التسامح والتساهل وظلوا فى تبشيرهم حتى أثروا فى عقول فريق ليس بقليل من الناس المثقفين ، فصاروا ينظرون إلى الشرقيين لا بمنظار للتعصب الذميم والحقد الكامن بل بصفتهم أحد أركان هذه الهيأة البشرية التى ساهمت فى إقامة

صروح المدنية على ممر الأجيال والعصور

ومبادىء التساهل هذه قد انتشرت انتشاراً واسعاً خلال القرنين التاسع عشر والعشرين فاقترب بسببها الشرق من الغرب أكثر من قبل ، ولعبت المصالح المادية الدور الأول في إقامة العلاقات الودية بين الطرفين ، وصار الغربي يتودد في كثير من الأحيان إلى الشرقي دون أن ينظر إلى دينه ، ويخلص في تودده ؛ على أن هذا لا يمنعنا من التنبيه إلى ما يكتبه بعض المؤرخين المغرضين وهم ما زالوا يحرصون كل الحرص على مبادىء التعصب والحقد التي سادت دنياهم منذ العصور الوسطى المظلمة ، وقد تجد من هؤلاء من ينفث سمومه في صحف ومجلات محترمة أوربية وأميركية وتراه يحمل حملات شعواء على العرب مثلاً ولا ذنب لهم في نظره إلا لأنهم مسلمون وهو لا يحب الإسلام ولا المسلمين، ويريد أن يرى في الحرب العالمية السابقة حرباً صليبية انتهت بظفر الصليبيين على الهلال ودخول البلاد المقدسة تحت الحكم الإنكليزي

نتائج الحروب الصليبية

من المناسب أن ننظر إلى الحركة الصليبية كجزء أو فصل من تاريخ البشرية ، لا كعمل أريد به تنصير الشعوب الشرقية ؛ وتأريخ هذا الفصل صعب جداً ، لأنك بينما تجد بعض المؤرخين يذهبون إلى أن معظم التطورات الاجتماعية العالمية قد نشأت عن الحروب الصليبية ، يقول آخرون خلاف ذلك فلا يهتمون أبداً بتلك الحروب الاهتمام الذي تستحقه

على أن من الإنصاف أن نقول ونقرر بأن اضمحلال عهد الإقطاع وظهور المدن الحرة وبشائر عهد اليقظة ، حتى والاكتشافات البحرية ، كل أولئك يمكن إرجاعه إلى حد ما إلى الحركة الصليبية

ففي أوائل القرن الحادي عشر كان الأشراف والفرسان أول من لبى نداء البابا ، وخرج منهم عدد كبير إلى الشرق فقتل أكثرهم ، وأقام آخرون في الأراضي المقدسة ، فقل بذلك عدد الأشراف . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن إعداد الحملات الصليبية قد اضطر هؤلاء إلى بيع أملاكهم كلها أو بعضها كما اضطرهم إلى تحرير أرقائهم مقابل مبالغ دفعوها إليهم ، وقد أقام أولئك العتقاء في المدن واشتغلوا بالصناعة والتجارة ، فزادت أهمية المدن وظهرت فيها طبقة جديدة هي الطبقة الوسطى المؤلفة من أولئك الذين حرروا أنفسهم بما دفعوه لساداتهم النبلاء .

ولقد استطاعت هذه المدن بفضل جد أبنائها من أرباب الصناعة والتجارة أن تشترى هي أيضاً حريتها من الأشراف ذوى السيادة عليها وتكتفي بحماية الملك أو الإمبراطور

وأما بوادر النهضة واليقظة فقد ظهرت حين اتصل نصارى الغرب بمسلمي الشرق وأخذوا عنهم ما سمعوه من أغان وأحاديث واطلعوا على تاريخ البلاد الآسيوية وجغرافيتها وهي التي أيقظت العالم الغربي من سباته العميق وجمعت كلمته على عمل مشترك بعد أن كانت الفردية فيها مستحكمة العرى وكانت الفكرة القومية كلمة لا معنى لها ، فكان الباريزي مثلاً ينظر إلى ابن مرسيليا نظره إلى الألماني الأجنبي عنه أو الإنكليزي ، وذلك لأن الطرق لم تكن معبدة ووسائل التنقل نادرة صعبة ، فكان الناس لا يعرفون إلا من جاورهم من السكان ، فلما ضمتهم الحروب الصليبية تحت لواء واحد تعارف أبناء الأمة الواحدة وتآلفوا . ثم أيقظت هذه الحروب بين النصارى فكرة الدفاع عن مبدأ مشترك مقدس وهذا ما كان يقوم في العصور الوسطى مقام المبادئ المشتركة التي تربط جيلنا المتحضر مثل نظرية الحرية الدينية والسياسية وتقرير المصير واحترام العهود والمواثيق

ومن نتائج الحروب الصليبية قيام فريق من الملوك الأوربيين بجمع الضرائب الثابتة من رعاياهم ، فقد باشر بجمعها لويس السابع ملك فرنسا فتبعه هنرى الثاني ملك انكلترا ، ثم جبيت ضريبة صلاح الدين في معظم العالم الغربي سنة ١١٨٨ ولم تقتصر الضرائب هذه على الأهلين بل تناولت أيضاً رجال الكنيسة وذلك بقرار استحصله البابا أينوسن الثالث في مجمع لاتيران الديني سنة ١٢١٥ على أن تنفق تلك الضرائب على الحروب الصليبية

وحينما جاء الفرنج ساحات الحرب في الشرق لم يفكروا في تنصير المسلمين بادئ بدء ، فلما مضى عليهم نحو عصر استيقظوا من غفلتهم ، وكأنهم أرادوا أن يتلافوا ما فاتهم بالتبشير بالدين المسيحي ودعوة الشرقيين إلى التنصر فقاموا قومة واحدة وعلى رأسهم البابا ، وأخذوا يبعثون إلى ديار الشرق وإلى قبائل التتارية مبشرين انتشروا في جميع البلاد الواقعة بين عكا والإمارات اللاتينية الشامية من جهة ، وسد الصين من جهة أخرى ؛ وكان النصارى مع الباباوات يعلقون آمالاً كبيرة على تنصير التتار .

٢ - المصريون المحدثون

شمـــائلهم وعاداتهم

تأليف المستشرق الانجليزى ادورد وليم لين

للأستاذ عدلى طاهر نور

مقدمة الكتاب

البلد ومناخه — العاصمة — المنازل — السكان

من المشاهد أن أكثر الخصائص لشمائل أمـة وعاداتها وأخلاقها، إنما يرجع إلى الخصائص الطبيعية لإقليم هذه الأمة. فخصائص الإقليم المصرى تؤثر ولا شك فى أحوال المصريين الأخلاقية والاجتماعية ، وهى لذلك تقتضينا كلمة إيضاحية نجمل فيها الآثار العامة ؛ أما الآثار الخاصة ، فستتجلى فى الفصول الآتية من هذا الكتاب

يجرى النيل فى وادى مصر العليا الشديد الضيق الكثير الريح بين صحراوين جبليتين رمليتين ، حتى يجتاز سهول مصر السفلى ؛ وهو فى مجراه تكتنفه فى كل مكان ، ما خلا مواضع قليلة منه ، حقول زراعية تكونت من غرينه ؛ وهذه المناطق الزراعية ليست مستوية كل الاستواء لانخفاضها عند الصحراء وارتفاعها قليلاً عند النهر ؛ يتخللها غابات من النخل وسلاسل من القرى ، وتقطعها ترع عديدة

تصل أمطار الصيف الغزيرة التى تقع فى الحبشة وما جاورها من البلاد أرض مصر حول الانتقال الصيفى ؛ وعند الاعتدال الخريفى يبلغ النهر أقصى فيضانه ، فيُترع النهيرات والقنوات التى تروى الحقول ، ويغمر بقاعاً واسعة من الأرض الصالحة للزراعة ، ثم يهبط تدريجياً حتى يعود سيرته الأولى . ويحمل النيل معه ، وعلى الأخص فى وقت الفيضان الغرين (الطمى) الذى يجرفه من البلاد الجبلية حيث ينبع ، فيوزع فى كل سنة هـذا الغرين الوفر على الحقول المنبسطة على جانبيه ، بالفيضان

فلما حكم هؤلاء تيمورلنك قضى على فكرة التبشير وحمل أبناء قومه على اعتناق الديانة الإسلامية

وقد نقل الفرنج من سوريا أموراً كثيرة إلى بلادهم . فالفرسان منهم أخذوا عن العرب القوس والطبل والبيرق والرمح . وقد كانت الفروسية فى مبدئها عربية أخذها الفرنج عن فرسان العرب الذين كانوا يغيرون على بلادهم خلال العصرين الثامن والتاسع . ويقول سديو المؤرخ الفرنسى : « إن خلال الفروسية الأندلسية وشمائلها الرقيقة كانت مستقى أخذت منه الفروسية النصرانية الكثير من خلالها ورسومهـا » . ويقول فياردو : « إن الفروسية وكل نظمها التى عرفت فى الأمم النصرانية كانت مزدهرة عند الأندلسيين أيام الناصر والحكم والحاجب المنصور ، وكانت الأندلس فى ذلك العصر كعبة يقصدها فرسان النصرانية من كل صوت بعهد سلام وحماية من الخلفاء ليعقدوا المباريات مع فرسان الإسلام . وقد بلغت الفروسية العربية أسمى درجاتهـا وذروة ازدهارها فى مملكة غرناطة التى يفيض تاريخها بأخبار السادة والأمجاد وأحاديث شهامتهم ووفائهم

فالألعاب الفروسية أصلها سباق الجريد المعروف عند العرب، والمبارزة، وما يتبعها من آداب اجتماعية، مثل تقديم المساعدة المرأة والولد والشيخ العاجز ، والوفاء بالوعد ، والتجمل بمبادئ الرجولة، والمروءة، والكرم ، كل أولئك أشياء معروفة عند العرب الذين كانت طبيعة بلادهم وحياتهم الاجتماعية فى صحرائهم المترامية الأطراف وشدة عنايتهم بضروب الفروسية تحملهم على الاعتماد على السواعد المفتولة فى بلوغ ما يصبون إليه من صفات الرجولة أكثر من اعتمادهم على شىء آخر . كما نقل الفرنج إلى بلادهم بعض المحصولات النباتية كالسمسم والمشمش والبطيخ والذرة والليمون والشمام والقطن والسكر .

هذا عدا أشياء وأمور وعادات شرقية كثيرة انتقلت إليهم عن طريق الأندلس وصقلية . كل ذلك يبرهن على مبلغ التأثير الكبير للحروب الصليبية فى حياة الأمم الاجتماعية فى الديار الغربية

(فلسطين) د . التميمى

الطبيعي أو بالري الصناعي ؛ بينما يرتفع مجراه من تراكم هذا الغرين بدرجة مساوية لارتفاع الحقول . ويعتمد المصريون جميعاً على نهرهم في خصب الأرض ، لأن المطر ظاهرة نادرة جداً في بلادهم ، ما عدا البلاد الواقعة على سواحل البحر المتوسط . ولما كانت الفصول منتظمة كل الانتظام ، فإن الفلاح يمكنه أن يرتب العمل الواجب إنجازه بكل دقة . وعمل الفلاح على الجملة سهل ، ولكن رفع المياه للري شاق متعب !

ومناخ مصر — في معظم السنة — ملائم للصحة إلى درجة تستحق الذكر . غير أن الأبخرة المتصاعدة من الأرض بعد الفيضان تجعل أواخر الخريف أقل ملاءمة للصحة ، فهي تسبب الرمد والديسنطاريا وبعض أمراض أخرى تكون أكثر شيوعاً في الخريف منها في الفصول الأخرى . وتهب فجأة رياح جنوبية حارة تدوم ثلاثة أيام في وقت الخماسين(١) التي تدوم على وجه التقريب خمسين يوماً تبدأ في شهر أبريل وتنتهي في آخر مايو ؛ وتلك الرياح يندر أن ترتفع منها الحرارة فوق ٩٥ درجة فاهرنهايت في الوجه البحري ، أو ١٠٥ درجة(٢) في الوجه القبلي ؛ إلا أنها تكرب الأنفاس وتضيق الصدور . وفي الصيف يفد الطاعون إلى مصر ، ويكون أشد خطراً في مدة الخماسين . ومصر معرضة أيضاً في الربيع وفي الصيف لريح السموم ، وهي أشد وطأة من رياح الخماسين ، ولكنها أقصر مدة ، إذ يندر أن تدوم أكثر من ربع ساعة أو عشرين دقيقة ؛ وهي تهب عامة من الجنوب الشرقي حاملة معها سحباً من الغبار والرمال . وتتراوح الحرارة في منتصف الشتاء بعد الظهر في الوجه البحري بين الخمسين والستين درجة في الظل . أما في أشد الفصول حرارة فتتراوح بين التسعين والمائة درجة . وتزيد على ذلك حوالى عشر درجات في مناطق الصعيد الجنوبية . على أن حرارة الصيف مهما بلغت شدتها قلما تضايق النفس، لأن النسيم الشمالي يلطفها، ولأن المناخ شديد

(١) أنظر هامش الفقرة الأولى فصل ٢٦

(٢) هذه هي الحرارة في الظل وقد لاحظت في مدينة طيبة أن ميزان الحرارة يرتفع إلى ما فوق ١١٠ درجة في الظل أثناء ريح خماسيني

الجفاف . إلا أن هناك مصدراً كبيراً للضيق يسببه ذلك الجفاف ، وهو كثرة الغبار . وهناك أوبئة أخرى تقلل كثيراً من الراحة التي ينعم بها المصريون وضيوفهم في هذا المناخ البهيج . ويكثر الذباب في الربيع والصيف والخريف كثرة مزعجة أثناء النهار . أما في الليل فينتشر البعوض انتشاراً يقض المضاجع ما لم يتقه النائم بالكلة . ويملأ البق أثناء الفصل الحار كل المنازل ذات الأثاث الخشبي . ولا يمكن تجنب القمل في أي فصل ، ولكن من السهل التخلص منه . أما البراغيث فتكثر في الشتاء كثرة مزعجة

ومناخ الصعيد أكثر ملاءمة للصحة من الريف وإن كان أشد حرارة . وقلما ينتشر الطاعون فيما وراء القاهرة . وهو أكثر انتشاراً في مناطق المستنقعات القريبة من البحر المتوسط . وفي أثناء السنين العشر الأخيرة ، قبل زيارتي الثانية لمصر ، لم تحدث غير إصابات قليلة جداً ، إلا في الأقاليم السابقة الذكر ؛ وهذه لم يكن الوباء فيها شديداً(١) ، لأن البلاد تحسن صرف مياهها ، وأدخلت فيها نظم الحاجر الصحية لمنع دخول هذا المرض من بلاد أخرى أو لوقفه . والرمد أكثر انتشاراً في الوجه البحري منه في الأقاليم الجنوبية . وهو يحدث عامة من العرق ؛ ولكن ضرره يتفاقم من الغبار ومن أسباب كثيرة أخرى . وقلما يستفحل خطر هذا المرض إذا أسرع المرضى في استعمال الدواء ، ولكن كثيراً من الوطنيين لجهلهم طريقة العلاج ، أو لإصرارهم على تفويض الأمر للقدر، يفقدون البصر كله أو بعضه

وكثيراً ما سألني السائلون هل في مصر معمرون ؟ ومن المحقق أن قليلاً من أهل هذا البلد من يبلغ السن العالية ؛ ولكن من

(١) هذه الملاحظة كتبت قبل طاعون سنة ١٨٣٥ الهائل الذي دخل من تركيا وانتشر في كل أنحاء مصر ، ولو أن آثاره لم تكن عظيمة في الأقاليم الجنوبية . وقد أهلك ما لا يقل عن ثمانين ألف نفس في القاهرة ، أي ثلث السكان ، وأزيد بكثير على ما أعتقد من مائتي ألف في كل مصر . وطبقاً لتقرير حكومي بلغ عدد ضحايا هذا الوباء حوالى أربعين ألفاً في القاهرة . ولكن أخبرتني جهة رسمية عليا أن الحكومة جرت في هذه الحالة على قاعدة تقرير نصف عدد الأموات فقط

النادر أن يبلغ المرء هذه السن في بلدنا دون أن يصاب مراراً بمرض مميت لولا عناية الطب التي لا ينالها إلا النزر القليل في مصر . وحرارة الصيف تنهك الجسم ولكنها تدفع المصريين إلى الإفراط في اللذات الشهوانية . وخصوبة الأرض تولد الكسل ، فيكتفي المصري بالقوت القليل ، وهذه الكفاية يحصل عليها بأدنى سعي وأقل مشقة

والعاصمة المصرية الحديثة التي يشغل الحديث عن سكانها أكثر صفحات هذا الكتاب، تسمى الآن «مَصر[1]» أو باللفظ الأفصح «مِصر» ؛ ولكنها كانت تسمى من قبلُ القاهرة فصحفها الأوربيون إلى «كايرو» . وموقعها عند مدخل الصعيد في منتصف المسافة بين النيل وسلسلة المقطم الشرقية ، وبينها وبين النهر بقعة صالحة للزراعة في أكثر أجزائها . يزيد عرضها على ميل في المناطق الشمالية (حيث يقع ميناء بولاق) ، ولكنها في الجنوب أقل من نصف ميل . ومساحة العاصمة تبلغ تقريباً ثلاثة أميال مربعة . وقد أحصى عدد سكانها أثناء زيارتي الثانية فبلغ زهاء مائتين وأربعين ألفاً ؛ وقد زاد هذا العدد بعد ذلك كثيراً بسبب إنقاص عدد الجيش ولأسباب أخرى . والقاهرة محاطة بسور تقفل أبوابه ليلاً ، وتشرف عليها قلعة كبيرة تقع في زاوية من المدينة بالقرب من الجبل ، وشوارعها ليست مبلطة وأكثرها ضيق غير منتظم ، وهي أحرى بأن تسمى أزقة

وتبدو القاهرة للأجنبي العابر في شوارعها مدينة ضيقة جداً تغص بالسكان ؛ ولكن الحال تختلف في نظر من يشرف على المدينة من سطح منزل أو من مأذنة مسجد . وأكبر الشوارع يكون فيه عادة صف من الحوانيت على كل جانب ، وفوق الحوانيت غرف لا تتصل بها ، وقلما تكون مشغولة بمستأجري الدكاكين وتوجد على أيمان الشوارع الكبيرة وعلى شمائلها دروب وحارات ، وأغلب الدروب طرق مزدحمة لكل منها بوابة من الخشب كبيرة على مدخلها تقفل ليلاً ، ويحرسها بواب من الداخل يفتح لكل من يطلب الدخول . أما الحارات فغالباً ما تتكون من عطفات صغيرة لها مدخل عام واحد ذو بوابة تقفل كذلك ليلاً ، ولكن أكثرها يشقها درب من أولها إلى آخرها

ولا بد لي من وصف دور العاصمة ، وهذه الصورة التي أمامك تعطيك فكرة عامة عن خارج تلك المنازل . وتبنى



شكل ١ — (منزل في القاهرة)

الجدران الأساسية في الطابق الأول خارجاً وداخلاً من الحجر الجيري الناعم ، يقطعونه من الجبال المجاورة . وعند ما يقطع الحجر يكون سطحه ذا لون ضارب إلى الصفرة الخفيفة ، ولكن لونه سريعاً ما يقتم . وتلون خطوط الواجهة أحياناً بالحمرة والبياض على التعاقب خصوصاً في المباني الكبيرة كما هو الحال في أكثر المساجد[1]

(١) هذا هو الاسم الذي يطلقه المصريون المحدثون على بلدهم كما يطلقونه على عاصمة بلدهم

(١) طريقة تزيين الدور أصبحت أهم بكثير مما كانت عليه قبلا بناء على أمر الحكومة طلبت فيه من السكان الاحتفال بقدوم إبراهيم باشا من سورية . وبعد ذلك بسنوات كان سكان القاهرة يأمرون بتبييض طبقات منازلهم العليا ؛ فشوش هذا منظر المدينة الجميل ، لأن التباين بين بياض الجدران وسواد أخشاب النوافذ القديمة أحدث تأثيراً غير جميل

ويظهر الشارع في الصورة (شكل ١) أوسع مما هو في الواقع فإن النوافذ البارزة على جانبي الطريق تكاد تتقابل فتحجب الشمس تقريبا وتحدث رطوبة مقبولة في الصيف

الإنجليز والعمل

[نقلا عن مجلة الشهر الفرنسية]

للأستاذ مصطفى كامل

يضرب المثل بالبرودة الإنجليزي ، ولكن النشاط الإنجليزي لا يقل ذيوعاً عنه . وكثيراً ما كان الشعب الإنجليزي فى رأى الأجانب قليل الاكتراث ، بطيئاً فى التصميم ، مفضلاً الاحتفاظ الشديد بعمله وراحته وعاداته اليومية على كل شيء آخر . مع أن هذا الشعب نفسه قد أدهش العالم مراراً بجلده فى المشاق وإصراره الخارق وموارده المادية والأدبية التى لا تنفد ، والتى يستخدمها فى العمل بمجرد شروعه فيه . أخذ بعض الذين عيل صبرهم على الإنجليز أنهم لم يعبأوا بتوغل الألمان واستفزازهم فى أوائل هذه الحرب ؛ ولكن العالم كله اليوم يتحقق من إرادة هذه الحكومة وهذا الشعب التى لا تنثنى أمام أية تضحية ، وفى عدم ادخار أى مجهود لوضع نهاية لتهديد الريخ الثالث للأمم الشرقية ولمجموع العالم المتمدن . فكيف نوفق بين هذين النوعين من الوقائع ؟ سنوضح أنهما غير متناقضين إلا فى الظاهر

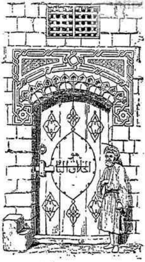
فلو أننا تأملنا الشعب الإنجليزى إبان العمل لأدركنا سر تصرفه فى وقت الراحة . فاللغز هو أن العمل عنصر طبيعى للنفس الإنجليزية ، فلا حاجة إلى كلمات بيانية ، أو حركات خطابية لحثه على العمل . إذ أن النفس الإنجليزية لا تستطيع أن تتصور حياة بدونه ، فالتصرف والعمل لهذه النفس ضرورة حيوية وليس نظاماً ، ولهذا لم يكن النشاط المتوالى الذى يفيض منها مكتسباً أو زائفاً أو وقتياً ؛ ولم يكن الهدوء والراحة فى نظر الإنجليزى غير نتائجه المفيدة المرغوبة . ويجب الاعتراف بأن للإنجليزى سيطرة لا تجارى فى العمل تعطيه مع غريزة الاستمرار والتضامن فى الجهود، قوةً تجعل منه أثمن حليف وأنفع صديق

الصدارة فى العمل

وليس أدل على أن الإنجليز شعب عمل من نفس اللغة التى خلقوها لاستعمالهم ؛ فليست توجد لغة أوربية أخرى يهيمن

ويشيد البناء العلوى بالآجر ، ويغطى بالكلس أحياناً ، وهو ذو واجهة تبرز حوالى قدمين ، يقوم على كوابيل أو دعائم ؛ والآجر لبن محروق ذو لون أحمر قاتم . ويتكون الملاط من طين بنسبة النصف ، وكلس بنسبة الربع ، والباقى من رماد التبن والسقط . لذلك تبدو الجدران غير المنشاة بالكلس قذرة اللون كما لو كانت مبنية باللبن . ويغطى سطح المنزل بالكلس ، ويكون عادة من غير سور

ويبين الرسم رقم ٢ الأسلوب المعمارى « الأكثر ذيوعاً » لمدخل المنزل القاهرى . فالباب كثيراً ما يزين على هذه الطريقة المصورة ، فيصبغ القسم الذى فيه الكتابة والأقسام الأخرى المتشابهة الشكل بلون أحمر يحده حد أبيض ، بينما تلون بقية الباب باللون الأخضر . أما عبارة « هو الخلاق الباقى » التى سنشرح موضوعها عند الكلام على خرافات المصريين فترى على أبواب كثيرة . وهى تنقش عادة بحروف سوداء أو بيضاء . وقلما تصبغ الأبواب ما عدا أبواب البيوت العظيمة . ويكون لها على العموم سقاطة من الحديد وضبة من الخشب ،



شكل ٢ — (باب منزل قاهرى)

وعلى جانب الباب درجتان من الحجر للركوب (١)

(يتبع)

عدلى طاهر نور

(١) وهى المعروفة بسلم التسليم (المترجم)

(الفعل) عليها بهذه الدرجة — أعنى التعبير عن الحركة والفعل والنشاط — كما أنه لا توجد لغة لها مثل قدرتها على التعبير الدقيق عن النظام والأمر ، وفى تصوير ما فعل أو ما يتعلق بما يفعل ، يمثل هذا الإيجاز والوضوح

ولكل مراتب الحركة والعمل (فعل) فى الإنجليزية ينطبق عليها تماماً بغير ضرورة إلى استعمال ظرف أو أى تعبير للتحديد أو الإيضاح . وفعل يرفس to kick ، وهو مثل من آلاف الأمثلة التى تزخر بها اللغة الإنجليزية ، ليس له مثيل فى أية لغة أوربية ، كما أن الفعل فى الإنجليزية يتغلغل فى الجملة بأكملها ، فيبرز جرسها ويحدد وزنها

والذى تفصح عنه اللغة الإنجليزية ببراعة هو دقائق تكوين الذكاء الإنجليزى الذى تبدو الفكرة فى ثناياه كأنها لم تخلق إلا للاستعداد للعمل والترحيب به وجعله سائغاً . وقد ذكر سلفادور دى مادرياجا عن هذا الموضوع فى كتابه (الإنجليز والفرنسيون والإسبان) آراء فى منتهى السداد والدقة ، قال :

« إن الذكاء الإنجليزى فى الدرجة الأولى من القوة ، ويبلغ أقصاه أثناء العمل وعند ما يكون الإنتاج العملى محط النظر ، ولكنه لا يتكلف المشقة من أجل تصرفات لا تجدى ، وهذا هو أحد أسباب الشهرة السيئة التى نسبت إليه ؛ كما أن هناك سبباً آخر ، فذكاء الإنجليزى ، وهو أقل تخصصاً فى الأمور الذهنية ، كأنه ذائب فى جميع أنحاء جسمه ؛ وهذا ما يفسر بطئه فى التحرك ، فإنه لا يكفى أن يحشد التهييج الخارجى قوى المخ وحده بل جميع الجهاز العصبى أيضاً ، كما أن الإدراك لا يتم بالمخ وحده ولكن بجميع الجهاز العصبى كذلك . ولهذا كانت الآلة العقلية فى الإنجليزى أكثر تعقداً وثقلاً وبطئاً للبدء فى العمل »

وهذه الفكرة التى تركزت فى العمل من تلقاء نفسها تتضح فى مذهب المنفعة الذرزى الذى نجد الأدلة العديدة عليه فى تاريخ انجلترا ، والذى يفسر كثيراً من الأمور فى عادات الإنجليز ، فالإنجليزى يتجه قدماً نحو العمل عند ما يتعلق الأمر بالتصرف مهما كانت الوسيلة . ومن السهل عليه أن يقنع بالضرورى ، ويكون لديه كل ما لم يفد مباشرة فى الغرض الذى تكفل ببلوغه قائماً عديم الجدوى ، ومع ذلك فإن هذا لا يعنى أن العمل يقوم بطريقة تدل على التسرع والشدة والعسف ، بل على العكس ، فإن عادة الإنجليزى فى التصرف وفهمه للحياة فى ظلال العمل تملى أن يتصرف بهدوء وتؤدة ، وتخول له أن يشعر بالراحة وهو فى أوج العمل ، وأن يدخل فى حسابه على قدر المستطاع أوقاتاً للاستجمام والراحة

والإنجليزى لا يستسلم للاهتياج بسرعة ، ولا للاندفاع إلى العمل بغير أن ينضجه تماماً فى ذهنه ، فهو بطىء فى التحرك ، ولكنه عند ما تستولى عليه فورة العمل لا يقفه شىء ، فإنه عند ما يتصرف يؤدى عمله بكل جوارحه وقلبه . وكيف لا يكون كذلك وهو فى أثناء العمل يشعر أنه كالسمكة فى الماء ، لا تشعر وهى فى الماء بالحاجة إلى العنف لتسبح ، ولهذا لم يكن فى النشاط الإنجليزى أثر من الضيق أو الوهن ، بل تصحبه الابتسامة والراحة

وإننا نجد فى بعض رسائل الشاعر الروسى تيوتشيف بتاريخ ٢٥ يونيو ١٨٥٥ قوله : « أمامنا العدو — ويقصد الأسطول الإنجليزى فى حرب القرم — فقد تبادلت الرسل بين الفريقين هذه الأيام ، ولقد كان بين الطلبات السخيفة التى طلبت منا ، طلبٌ فى غاية الغرابة ، هو أن نمنحهم ركناً صغيراً فى أرض محايدة ليستطيع رجال أسطولهم أن ينصرفوا إلى لعبتهم المحبوبة (الكريكيت) » .

صحيح إن حرب ١٨٥٥ لا تشبه الحرب فى ١٩٣٩ ، ولكن الخلق الإنجليزى لم يتغير تغيراً محسوساً ، ومع ذلك فإن طلب البحارة الإنجليز لم يكن سخيفاً كما ظن تيوتشيف ، لأن التدريب الرياضى جزء من نظام التعليم الذى خلق طراز رجل العمل الإنجليزى السكسونى

غريزة التضامن

وهناك مظهر أساسى آخر للنفس الإنجليزية ، هو غريزة التضامن التى تسود العاطفة الشديدة للمنفعة المشتركة والعمل المشترك ؛ فإن النفس الإنجليزية ممتلئة أكثر من أية نفس أخرى بهذه العاطفة . فالتضامن للانجليزى ، سواء أكان مقصوراً على أعضاء الجماعة الصغيرة أم كان يشمل الوطن كله ،

ليس شيئاً معنوياً أو مثلاً أعلى للأخلاق أو الاجتماع ، وإنما هو حقيقة واضحة مادية ، بل هو ضرورة يشعر بالحاجة إليها ، وكل أمة جديرة بهذا الاسم تتآزر في الخطر إذا داهمها من الخارج ؛ ولكن ذلك يكون عن اقتناع بالضرورة إليه ؛ أما في انجلترا ، فإن الذي نراه في مثل هذه الحالات هو غريزة غير واعية ، ولو أنها سليمة الإدراك ، وهي تشبه من بعض الوجوه الغريزة التي تثير أعضاء فريق الكريكيت عند ما يتعلق الأمر بالدفاع عن الشرف الرياضي لقرية أو مدرسة . وقد أصبحت التقاليد والتعليم طبيعة ثانية ، فإنه في الخلايا الاجتماعية الصغيرة وفي الحياة اليومية تتكون على التحقيق الغريزة التي يمكن أن توحد ، عند ما تسنح الفرصة ، بين جميع انجلترا ، وكل الأمبراطورية ، بل بين جميع العالم السكسوني الإنجليزي

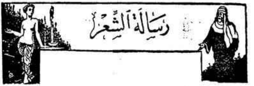
وغريزة التضامن مصدر للنظام الاختياري الذي لا يشبه النظام الفرنسي ولا للنظام الألماني من باب أولى، فإن الألماني يخضع لأمر، والفرنسي يخضع لمبدأ، والانجليزي يخضع لنفسه، لغريزته، لرغبة الحياة في المجموع ، وهي رغبة طبيعية لديه بمقدار الرغبة في الحياة . النظام الألماني رق اختياري ، والنظام الفرنسي خضوع الإرادة للآراء الواضحة البينة ؛ أما النظام الإنجليزي فهو فيض غريزة خاصة بكل إنجليزي ، وهو وثيق الصلة بفكرة الخدمة : الخدمة التي يؤديها الإنسان طواعية إلى قريبه، لا الخدمة التي يؤديها الشخص إلى متبوعه . وكلمة موظف تترجم في الإنجليزية (بالخادم المدني) ، فإن لفكرة الخدمة الاجتماعية عند الإنجليزي معنى يشبه المعاني الدينية . ومن الواجبات الرئيسية على رجال الدين الانجليكانيين والبروتستنت في انجلترا غرس الخدمة الاجتماعية ، ومكافحة البؤس والأماكن غير الصحية ، وتنظيم الإحسان العام ومقاومة البطالة ، وتعويد الإنسان أن يكون نافعاً على أية صورة وبأية وسيلة ؛ ولكن ذلك غير مقصور على الكنائس والقسس فحسب ، ولكن التعاون الاختياري منتشر بين جميع الطبقات وفي جميع ولايات المملكة المتحدة ، وفي مجموع العالم الانجلوسكسوني

ولتفهم غريزة التضامن الانجليزية يجب التنويه على الأخص بأنه تضامن إيجابي في العمل، وليس عاطفة سلبية بتحمل المسؤولية المشتركة مما يمكن أن نجدها كذلك في الشعوب الأخرى ، فإن الصدارة في العمل تتأكد في هذا الميدان كما تتأكد في مجال الاستمرار التاريخي ، في التقاليد الحية . ففي اللحظة التي يهدد الخطر بلاده فيها ، وتكون الضرورة إلى العمل المشترك لا محيص عنها، يتجه الانجليزي بكليته نهائياً إلى تقليده وإلى جماعته، وعندئذ تبلغ عبقريته الفردية أقصى قوتها وتتكشف عن كافة مواردها

إن أهم ما يريد الانجليزي قوله يقوله في صوت خافت ، فإذا كان قلقاً بدا أكثر صمتاً وهدوءاً من قبل ، حتى إذا هدد الخطر جميع الذين معه يدرك أن الصمت لم يعد يكفي ، وأنه يجب عمل شيء آخر يسهل انجاز أثقل الواجبات ؛ وكلما ازداد الخطر بدت على وجوه المارة في لندن علائم الأنس واللطف

لقد تكلم الناس كثيراً عن قوة بريطانيا المادية وقوة بحريتها وطيرانها ، ولكن الذي يفوق هذا كله هو أطوارها في الجهود بمجرد أن تباشرها ، وإحساسها بالتضامن ، وهدوءها الحازم في الأوقات الحرجة ؛ وبمعنى آخر قواها الأدبية التي تؤيد الحقيقة الناطقة للحكم القائل : « إن الشعب البريطاني ما يزال أعز حليف في العالم »

مصطفى كامل



من جراح الحرب!

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

[مهداة إلى الذين نصر الله أيامهم بالغنى واليسار ، فتركوا أيام الأشقياء والبائسين صرعى على أعتابهم بلا رحمة ولا إحسان . . . ! وإلى الذين شردتهم ويلات الحرب فى كل مكان . . .]

عبيدَ الخزائنِ ... طوفوا بها — كما طاف نعشُ الهدى بالصنمْ!
وأدّوا الصلاةَ بأعتابها — عساها لكم كعبةٌ أو حرمْ
وبثّوا الكنوزَ حديثَ الهوى — لعلّ شذا المالِ يروى النهمْ
وقفتم هواكم وأحلامكم — على أخرسٍ سرمدىِّ البكمْ
له رنّةٌ فى حشاكم لها — صدى عازفٍ عبقرىِّ الرنمْ
غزا رِقُّه دهرَكم مثلما — غزا النورَ ليلُ دجىِّ الظلمْ
عبدتم جمادًا على وجهه — لجرحِ الندى آهةٌ تبتسمْ
ظلمتم صِباه فشيّبتمو — هُ كما شاب فى الدهرِ معنى القِدَمْ
سجنتم خطاه بأيامكم — ولذتم به فى زوايا العدمْ
إذا امتدّ ضوءٌ لمحرابه — ذبحتم خطا الشمسِ فوق القممْ
وإن رفّ حلمٌ على مهده — نسختم فناءً لهذا الحلمْ
سهرتم عليه كأمّ الوحيدِ — سرى الليلُ فيها هوًى يحتدمْ
قلوبٌ سواهدُ مثلُ العيونِ — شرايينها ساهداتُ الضرمْ
وقفتم بها وقفةَ الديدبانِ — وطفتم بها طوفةَ المستلمْ
على رصدٍ كفّنت سرّه — يدٌ سرُّها فى الجمادِ الأصمْ
يسمّونه المالَ وهو الذى — يميلُ الحظوظَ ويُملى النعمْ!

* * *

أما جاءكم نبأٌ عن أمىً — جراحاتُ مصرٍ به تضطرمْ؟
بكى الثغرُ حتى مرى دمعَه — مع الريحِ رؤيا لهيبٍ ودمْ
يعاتبكم موجُه فى الضفافِ — وللموجِ شعرٌ شجىُّ النغمْ
إذا أذّن الفجرُ فى أفقه — يؤذّن عزريلُ فوق الأكمْ
فتهوى قصورٌ لها فى السما — جبينٌ على النجمِ عالٍ أشمّ
وتهوى قبورٌ على أرضها — تكادُ من الهولِ تبكى الرممْ
ألا من لسارين تحت الدجى — يسقّون من كلّ بؤمى وهمّ
تهاجرُ أيامُهم والطوى — بأحشائها وقدةٌ من ضرمْ
لهم سيرةٌ راح يروى الأسى — أساها بدمعٍ كسيبِ الديمْ
ديارُهم أقسمت لا ترى — فبرّ الخرابُ لها بالقسمْ
فلما تهاوت على أسّها — ودكّ الثرى صرحَها المنهدمْ
مشى الموتُ أعمى ضريرَ العصا — ينقّلُ فى كلّ عمرٍ قدمْ
تلوّح بكفيه زمّارةٌ — إذا نام زمّارُها لم تنمْ
نما غابُها فى خرابِ البلى — وطاف به الشؤمُ يسقى الأجمْ
سقا فرعَه من صروفِ الزمانِ — رزايا مشعشعةً بالنقمْ
بأدغالهِ لاذ جنُّ الفلا — وبومُ الدجى بذراه اعتصمْ
نما غابُها ... ليته ما نما! — ولا من حشاه عوى أىُّ فمْ
إذا ولولت فى ظلامِ الضفافِ — أصابَ البلى من صداها صممْ
فلا صرخةُ الطفلِ تلوى خطاه — ولو ذاب فيها حشا كلّ أمّ!
مفاجئةٌ لا تعى ما الوعودُ — ولا ما العهودُ ولا ما الحرمْ؟
إذا صفرت ذاب قلبُ الضياءِ — ودسّ الدجى وجهَه المدلهمّ
تخيّرت الليلَ مسرى نداها — كماردةٍ تشتكى للسدمْ
عواءُ الذئابِ لدى نوحها — ألذُّ استماعًا وأشجى نغمْ
تنادى فينشقُّ جرحُ الأثيرِ — على قاذفاتِ اللظى والحممْ
طوائرُ لم يدرِ ساقى الحديدِ — أهولًا سقى قلبَها أم ضرمْ؟

وَهَلْ سَاقَهَا لِلْوَغَى سَائِقٌ ... مِنَ الْجِنِّ أَمْ عَاصِفٌ مِنْ عَدَمْ
يُغِيرُ بِهَا وَالْكَرَى نَائِمٌ ... وَلَيْلُ الْحِمَى رَاهِبُ الْحُلُمْ
وَلِلنِّيلِ إِغْفَاءَةٌ أَقْبَلَتْ ... عَذَارَى الْخَيَالِ بِهَا تَسْتَحِمْ
سَجَا وَاطْمَأَنَّ كَأَنِّي بِهِ ... نَبِيٌّ يُبَارِكُ خَطْوَ النَّسَمْ
وَفِي وَجْهِهِ قِصَّةٌ لَمْ يَزَلْ ... مَعَ اللهِ قِرْطَاسُهَا وَالْقَلَمْ !
أَغَارَتْ عَلَيْهِ رِيَاحُ الْمَنُونِ ... فَضَجَّ لَهَا مَوْجُهُ الْمُرْتَطِمْ
وَحَالَتْ مِنَ الرَّوْعِ شُطْآنُهُ ... نِدَاءً يَصِيحُ بِجَوْنَى الْحُمَمْ :
مَشَى نَافِخُ الصُّورِ فِي أَرْضِكُمْ ... فَكُونُوا الْبَشِيرَ لِبَعْثِ الْأُمَمْ
دَعُوا الْهَوْلَ يَأْتِي كَمَا يَشْتَهِي ... فَإِنَّا أَلِفْنَاهُ مُنْذُ الْقِدَمْ
يُدِيرُ عَلَيْنَا خُطَا السَّافِيَاتِ ... عَلَى جَبَلٍ سَرْمَدِيِّ الشَّمَمْ !
عَلَى خَمْرَةِ الصَّبْرِ مِلْنَا بِهِ ... نَشَاوَى بِسِحْرِ الْأَسَى وَالْأَلَمْ
فَمَنْ رَامَ كَيْدَ الْحِمَى وَيْلَهُ ... سَيُشْقِيهِ جَبَّارُهُ الْمُنْتَقِمْ !
وَيُسْقِيهِ مِنْ سُخْرِيَاتِ الْفَنَاءِ ... عَتِيٌّ عَلَى الدَّهْرِ يُدْعَى الْهَرَمْ
أَبُو الْهَوْلِ فِينَا يَسُوقُ الزَّمَانَ ... وَيَرْعَى اللَّيَالِيَ رَعْيَ الْغَنَمْ
فَمَا الْهَوْلُ؟ مَا خَطْبُهُ إِنْ دَجَا ... سِوَى هَاجِسٍ بِخُطَانَا أَلَمْ ؟

* * *

دَعُونَا نُحَيِّ الْوَغَى وَاللَّظَى ... وَإِنْ كَرْبُهَا فِي ثَرَانَا احْتَدَمْ
فَمَا يَصْرَعُ الْمِحَنَ الْمُبْكِيَاتِ ... إِلَّا الَّذِي ذَاقَهَا وَابْتَسَمْ !
دَعُونَا نُحَيِّ لَهِيبَ الْخُطُوبِ ... وَإِنْ جَمْرُهَا فِي حَشَانَا اضْطَرَمْ
سَئِمْنَا حَيَاةَ الزَّمَانِ الْمَرِيضِ ... وَعَيْشَ الزَّمَانِ السَّقِيمِ الْهَرِمْ
دَعُونَا نُقِمْ مَجْدَنَا فِي النُّجُومِ ... فَمِنْ ضَوْئِهَا قَدْ نَسَجْنَا الْعَلَمْ
سَتَعْصِفُ أَيَّامُنَا بِالْوُجُودِ ... وَتَهْزَأُ أَرْوَاحُنَا بِالْعَدَمْ
وَنَبْنِي جَدِيدًا لِتَارِيخِنَا ... كَفَانَا فَخَارًا بِسِحْرِ الْكَلِمْ
تَمَرَّدَتِ الْأَرْضُ تَبْغِي الْوُثُوبَ ... فَمَا بَالُنَا بِالْكَرَى نَعْتَصِمْ
أَلَا فَلْنَقُمْ مِنْ عَمِيقِ الرُّقَادِ ... فَلَا بَعْثَ لِلْجِيلِ إِنْ لَمْ نَقُمْ !

محمود حسن اسماعيل

العاطفة الحيرى

للأستاذ خليل شيبوب

في الصدر عاطفةٌ ولهى محيرةٌ ... قد طالَ ما أتقي منها وما أجدُ
وددتُ لو ظهرتْ حتى يخفّ بها ... قلبي وحتى يُزاحَ الروحُ والجسدُ
كأنها في فؤادي حينما خفيتْ ... أنشودةٌ لم يُذِعْ ألحانَها أحد
حامت على الوتر المشدود صامتة ... فهل إلى نزعها منه تمدُّ يد
كأنها النجمُ يسرى في الغيوبِ وما ... يدرى إلى أيّ دنيا نوره يفد
أو خمرةٌ ليس يُدرى بعدُ شاربها ... تظلُّ في ختمها تغلى وتتّقد
أو درةٌ أخطأ الغوّاص موقعها ... تظلُّ في الصدف المختوم تنعقد
أو حبةٌ علقت في الأرض ناجحة ... فالأرضُ حُبلى بما فيها وما تلد
يا نزعةً في فؤادي لست أفهمها ... شرٌّ من الجدِّ لهوٌ قاتلٌ وددٌ(1)
أني الزمانُ الذي ما زلتُ أرقبه ... وفيه كلُّ أمانيّ الهوى بدد
وعُطّلتْ بدواتٌ كان يبعثها ... وجهٌ به قسماتُ الحسن تتّحد
ما عاد لي اليومَ من قصدٍ أحققه ... وأيّ قصدٍ أداريه وأفتقد
تقطّعَ الوترُ المشدودُ حين خبا ... نجمٌ سرى وأريقت خمرةٌ تقد
وأطفأ الصدفُ المختومُ درّتَه ... وحبةُ الأرض ماتت وهي ترتفد
قد بان أمسي وما يومي بمتلق ... به وليس ليومي في الزمانِ غدُ(2)
طفتْ هواجسُ في صدري تُغَمْغِمُ لي ... صلاتِ خمريّ تُشقيه وتضطهد
كأن تحتي فضاءً لستُ أُبصره ... لكن أحسُّ به يدنو ويبتعد
حسب الشقاء بأني قد رضيتُ به ... وأن لي ما وهى عزمٌ ولا جلدُ

خليل شيبوب

(1) الدد : الهزل
(2) بان : ذهب



من الأستاذ توفيق السلحدار

صديقي العزيز

شاء فضلك أن تنوِّه بي في سياق وصفك الفني لمنتداك تحت الكافورة — التي خلّدت ذكرها بأدبك البارع ، وإني متيمن ، يا صاحب الرسالة ، بحسن ظنك شاعر بأثر حبك وعطفك في رأيك .

وكم بودي لو يساعدني ما تعرف من حالي الصحية على القيام بما دعوتني إليه ، ولو يكون لي حظ من الكفاية يسمح بالإقدام في ميدان أنهيب الدخول فيه بعد ثنائك الكريم . على أني قد أخاطر كلما خطر لي موضوع وأسعدتني الصحة .

هذا ، ولك مني جزيل الشكر ، وصادق الإخاء ، وأحسن التحية .

(المنصورة) محمد توفيق السلحدار

تعقيب لغوي

جاء في (شجون) العلامة الدكتور زكي مبارك بالعدد ٤٢١ من الرسالة ما يأتي :

« أكبر هموم علمائنا اللغويين أن يعترضوا على نيابة حرف عن حرف ، وأن يقول قائلهم : إن العرب تعرف كيت ولا تعرف زيت (كذا) ، وأن يثوروا على أي تعبير لا يجدون له شواهد في أقوال القدماء ... الخ »

ولست الآن من محاجّة الدكتور في أفكاره هذه بصدد . وإنما هما ملحوظتان لفظيتان أريد التنبيه عليهما في عبارته :

١ — أن (ذَيْت) بالدال لا بالزاي . وقد انتظرت طويلاً لعل الدكتور يعود فيصححها ، فلم يفعل . وقد يكون هذا من سبق القلم ، كما قد يكون من زلات المطبعة .

٢ — أن (كَيْتَ) و (ذَيْتَ) لا بد أن تُكرَّرا . تقول : كان من الأمر كيت وكيت ، أو : كان من الأمر ذيت وذيت . وفي الحديث : « بئس ما لأحدكم أن يقول : نسيت آية كيت وكيت [1] » .

(١) كذا في (النهاية) لابن الأثير واللسان وغيرهما .

فكان واجباً أن يقول الدكتور : ... إن العرب تعرف كيت وكيت ، ولا تعرف ذيت وذيت ... [1] والله الموفق .

(ا . ع)

(١) ومما تحسن الاشارة إليه هنا أنه لا يصح أن يقال : كان من الأمر كيت وذيت ، أو : كان من الأمر ذيت وكيت ، كما أراه أحياناً في بعض الأقلام — ويكنى من الأمر أيضاً بكذا ؛ إلا أن (كذا) تفرد إن لم يتعدد الفعل . قال في (المصباح) : ويكون كناية عن الأشياء . يقال : فعلت كذا ، وقلت كذا . فإن قلت : فعلت كذا وكذا فلتعدد الفعل اﻫ . وكذا يفهم من كلام الجوهري . ومما أراه أحياناً قولهم : كان كذا وكيت ، أو فعل كذا وكيت . وهو خطأ .

١ — صحة مثل

في ثلاثة مواطن من باب « البريد الأدبي » في هذه المجلة ، (أنظر الرسالة ، الأعداد : ٤١٧ ، ٤١٩ ، ٤٢٠) كلمات ثلاث في المثل القائل : « النحو في الكلام كالملح في الطعام » . ذهب كاتب الأولى إلى تضعيف هذا المثل كون وجه الصحة في إيراده : « الهزل في الكلام كالملح في الطعام » استناداً منه إلى ما جاء في كتاب مجالس السلطان الغوري . فجاء الكاتبان الثاني فالثالث يؤيدان صحة المثل بنصه الأول

وهأنذا الآن بين يدي نص صريح وقفتُ عليه ، يثبت صحة المثل ويبين مغزى إطلاقه

جاء في القسم الثاني من الجزء الخامس من كتاب « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم » لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، المتوفى سنة ٥٩٧ ﻫ (ص ١٦٠ من الطبعة التي ظهرت أخيراً في حيدر آباد) :

« حدثنا محمد بن يحيى الصولي قال : دخلتُ على أبي العيناء في آخر عمره ، وقد كُفَّ بصره ، فسمع صرير قلمي على الدفتر قال : مَن هذا ؟ قلت : عبدك وابن عبدك محمد بن يحيى الصولي ! قال : بل ولدي وابن أخي ! ما تكتب ؟ فقلت : جعلني الله فداءك شيئاً من النحو والتصريف ! فقال : النحو في الكلام كالملح في الطعام ، فإذا أكثرت منه صارت القدر زعاقاً يا بني ! إذا أردت أن تكون صدراً في المجالس ، فعليك بالفقه ومعاني القرآن . وإذا أردت أن تكون منادماً للخلفاء وذوي المروءة والأدباء ، فعليك بنُتَف الأشعار ومُلَح الأخبار » اﻫ

فأنت راء مما نقلنا أن هذا المثل لا يحتمل تأويلاً ولا يستوجب تبديلاً ، بعد أن كفانا أبو العيناء (المتوفى سنة ٢٨٢ هـ) نصب البحث عن موقع استعماله

٢ – نظرة في مقال

أطالع باغتباط ما يكتبه الأستاذ محمد عبد الغني حسن بعنوان « مدن الحضارات في القديم والحديث » ، فهو بحث جليل ؛ وقد استوقفتني فيه نقاط (العدد ٤١٧ من الرسالة) أظنها تحتاج إلى مراجعة ، وهي :

١ – قال في الصفحة ٨٤٤ في كلامه على بغداد : « والبحتري الشاعر الرقيق يصف لنا بركة المتوكل في شعر تصويري جميل ... ويقول في ذلك :

تنساب فيها وفود الماء معجلة كالخيل خارجة من حبل مجريها»

والذي يُفهم من هذا الكلام ومما يتلوه ، أن بركة المتوكل كانت في بغداد ، في حين أن من المعروف عرفان اليقين أنها في سامراء . والذي يقرأ سيرة المتوكل يجد أنه قضى أغلب أيام خلافته في سامراء ، وبها أقام قصوره التي فاقت سائر قصور الخلفاء ، ولا داعي إلى تفصيل ذلك

٢ – وورد بعد ذلك بخمسة عشر سطراً قوله : « وكان نهر دجله في ذلك الحين يكاد يغص بالحرامات الكثيرة والزوارق الجميلة ... الخ » . والواضح أنها « ... يغص بالحرّاقات ... » وهي ضرب من السفن النهرية ، ولعل هذا من أغلاط الطبع

٣ – وفي آخر الصفحة نفسها ، عَدَّ « جميل نخلة المدور » عراقياً مع أنه لبناني

(بغداد) كوركيس عواد

الطنطاوي يتحرك ... فهل يتحركون ؟

قضت الظروف القواهر التي حلت بدمشق إلا أن تحطم الأقلام القليلة التي كانت تهتز بين حين وحين لتمسح عبرة من مقلة ، أو لتأسو جرحاً في قلب ، أو لتبعث نشوة في نفس . وأخذت جِلَّق تطوى الليالي السود وفي نفوس المثقفين من أبنائها غصة ، وتقضي الأيام العوابس والألم يصهر النفير من شبابها على الأدب الذي أصبح ميتاً فيها خلال هذه الأحداث أو شبه ميت . ولسنا ممن يزعمون أن الأدب في دمشق كان قبل الحرب خيراً منه في خلالها ، ولكن العاملين والعاملات كانوا يجدون حين يتعلى القلم أناملهم الخمس اللطاف ! ميداناً ينشرون به ما ينتجون . ولكن هذا الميدان بدأ نطاقه يضيق منذ اتقدت الشرارة الأولى لهذه الحرب الضروس – التي توشك أن تقضي على البشرية إن لم يطفئها عقلاء قوم – ولم يكن هذا الضيق خاصاً بالأدب والأدباء وحدهما ، وإنما كان عليهما أشد منه على غيرها من مرافق الحياة . وما زال الضيق يشتد، والنطاق يتأزم، حتى أمسينا منذ شهور وليس في الميدان من يخط حرفاً (لرثاء) الأدب بعد أن تلاشى وخمدت أنفاسه

وهكذا حطم الأدباء والمتأدبون يراعهم ، وحرمنا الأنس بصرير أقلامهم ، وطريف أقوالهم ... حُرِمنا ذلك كله لتحل محله الوحشة بدوى القنابل ، والذعر من عويل الطائرات[1] . ولم يعد ثمة مجال لغذاء العقل ، وقوت الفكر ، ونشوة الروح

وها قد أخذنا نتنفس الصعداء بعد هذه الضَّغْطة[2] القاتلة وشرعنا نستعيد شيئاً من هدوء النفس ، وطمأنينة الفؤاد بعد الانقلاب الأخير . فهل نترك عقولنا إلى الأبد دون غذاء ، وأفكارنا دون قوى ، وأرواحنا دون خمر ؟

تقول العامة إن الحركة بركة ! وهذا الأستاذ الطنطاوي يتحرك ويسارع بنشاط إلى قلمه بعد أن سكت فأطال وأطال .

وهذه الأنباء تترى علينا من كل ناحية وصوب ، والشائعات تملأ الجو الأدبي وكلها تبشر بخير كثير ونفع عميم . ولعل أعظم هذه الأنباء شأناً وأدعاها للغبطة والسرور هو نبأ إعادة مجلة المجمع العلمي في وقت قريب إلى حيز الوجود وتأمين صدورها بأوقاتها المعينة ؛ والذين يعرفون مبلغ أهمية هذه المجلة في دنيا الأدب سيغتبطون لهذا النبأ دون ريب . وهناك من يقول بأن الدكتور العجلاني يسعى للحصول على ترخيص لإصدار مجلة أدبية راقية ، إن لم يكن قد حصل بالفعل . وهناك طائفة من الشبان العاملين في حقل الأدب تمد العدة لإصدار صحيفة في الموضوع نفسه . ونعتقد أن هذه الصحيفة ستكون أكثر توفيقاً من غيرها لأنها ستقوم على سواعد أناس لا يبغون من وراء عملهم سوى خدمة الأدب والثقافة . وهناك ... وهناك ... فهل يتحقق كل

(١) كانت أصوات الطائرات التي أغارت على دمشق في فجر الخامس والعشرين من شهر حزيران (يونيو) لاتختلف عن العويل في قليل أو كثير

(٢) الشدة .

هذا فيك يا دمشق ؟ وهل تصدق كل هذه الأماني والأحلام العذاب ؟ وهل نرى أدباءنا كلهم يتسابقون إلى الميدان بإخلاص وعزم وثبات ؟ هل نرى الأدب في دمشق مزدهراً يانعة ثماره ؟ وهل نرى شيوخ الأدب وشبانه يعملون معاً متوادين متآلفين ، مخلصين متفقين ، ليس في الشيوخ واحد يستخف بشاب ، ولا بين الشبان متحذلق واحد يشتم الشيوخ ويسكب الثناء على نفسه من وراء حجاب ؟ هل نرى كل ذلك ... ؟ هل نراه ؟

(دمشق) عبد الغني العطري

الواو التي حيرت النحويين

لا بد لهذا الجمود في العلم عندنا من آخر ، ولا شيء يقرب نهاية هذا الجمود غير الطعنة الجريئة توجه للمتعارف بين أهله ، والمجمع بينهم على صحته ، لتثور بذلك ثائرتهم ، وتتفتح به أذهانهم المقفلة

وطعنتي اليوم لتلك الواو التي حيرت النحويين في نحو إياك والشر وغيره من صيغ التحذير ، فقد حمّلوها ما لا تحتمله من معنى العطف ، وتكلفوا في حملها عليه وجوهاً تأباها جزالة اللغة ، فقال بعضهم : إن الأصل في ذلك — اتق نفسك أن تدنو من الشرّ والشرَّ أن يدنو منك — فحذف أن والفعل وجارّه المقدّر والجارّ المتعلّق به من كل من المعطوف والمعطوف عليه ، فصار — اتق نفسك والشر — ثم حذف الفعل والمضاف وأنيب عنه الضمير فانفصل . وهناك تكلفات أخرى في ذلك أسهلها أن الأصل فيه — إحذر تلاقي نفسِكَ والشرِّ — فحذف الفعل ثم المضاف الأول وأنيب عنه الثاني ، فصار — نفسكَ والشرَّ — ثم حذف لفظ نفس وأنيب عنه الضمير فانتصب وانفصل وصار — إياك والشرّ

والحقيقة أن هذه الواو ليست من العطف في شيء ، وأن التعليم التلقيني التقليدي هو الذي يجعلنا نصر إلى الآن على أنها للعطف ، وأكبر دليل على أنها ليست للعطف أن صيغة التحذير قد تخلو منها فيكون معناها مع خلوها منها كمعناها مع وجودها فيها ، كما قال الشاعر :

فإياك إياك المــــراء فإنه   إلى الشر دعّاء وللشر جالب

وليس هذا شأن حرف العطف ، وإنما هو شأن الحرف الزائد ، فهذه الواو عندي زائدة لا عاطفة

ويلي هذا عندي أن تكون أصلية عاطفة لا على معنى التشريك في الحكم ، ولكن على معنى من الجارّة ، فيكون معنى — إياك والشر — إياك من الشر ، ولا غرابة في أن تأتي الواو العاطفة بمعنى من الجارة ، فقد وردت عاطفة بمعنى باء الجر في نحو قولهم — أنت أعلم ومالك — أي بمالك ، وهذا هو رأيي في تلك الواو أعرضه على قراء الرسالة الغراء ، ليوازنوا بين الرأيين ، وكم ترك الأول للآخر .

عبد المتعال الصعيدي

النفط

يحتل السائل المستعمل في الاستصباح اليوم مكانة ملحوظة من جميع الشعوب ، والقوم في مصر يشكون الآن قلته ، ويتنافسون في سبيل الحصول عليه ، وذلك لندرته واستنفاد الحرب القائمة لأكثرية الكمية الموجودة منه في العالم . ومن العجيب أن هذا الزيت قد أطلق عليه في مصر العربية جملة أسماء ليس من بينها اسم كانت تستعمله العرب ؛ فالحكومة المصرية تسميه في بطاقاتها « الكيروسين » ولا أدرى من أين جاءت هذه اللفظة ، وكتاب السياسة يسمونه « البترول » ولم أر لها أصلاً في اللغة ، والعامة تسميه « الجاز » أو « الغاز » وكل منهما لفظة مجهولة منكورة .

فلماذا لا نسمى هذا السائل باسمه العربي القديم ، والذي يطلق عليه اليوم في العراق وفي البيئات العربية الصميمة ، ألا وهو النِّفط ؟

جاء في المختار : « والنِّفط والنَّفط دهن ، والكسر فيه أفصح » ؛ وجاء في القاموس إنه : « ضرب من السرج يستصبح به » ؛ وقال المصباح : « والنفاطة أيضاً منبت النفط ومعدنه » . فلنقل « النفاطات » بدل « منابع البترول » .

ويقول بشار بن برد في حبيبته عبدة :

لعبدة دار ، ما تكلمنا الدار   تلوح مغانيها كما لاح أسطارُ
أسائل أحجاراً ونؤياً مهدماً   وكيف يجيب القول نؤى وأحجار ؟
وما كلمتني دارها إذ سألتها   وفي كبدي (كالنفط) شبت له النار !

« البجلات »   أحمد الشرباصي

والد الملوك الأيوبيين أيضاً

أراد الأخ الأستاذ محمد عبد الغني حسن أن يناقش (في العدد ٤٢٢ من الرسالة) فكرة جديدة بعيدة عما قصدت إليه بردي المنشور في الثقافة عدد ١٣٥ ؛ تلك الفكرة تتلخص — كما فهمت — فيما يلي : هل كان أمراء بني أيوب يلقبون بلفظ الملك أم لا ؟ وأنا لا أعارضه في هذا الرأي بل أزيده أن هذا التقليد بدأ في مصر

فكان يحمل لقب الملك وزراء بنى فاطمة الأقوياء عند ما جمعوا السلطان فى أيديهم ، وساعدهم على ذلك ضعف الخلفاء « وأول من لقب بالملك منهم مضافاً إلى بقية الألقاب رضوان بن ولخشى عند ما وزر للحافظ لدين الله ... سنة ثلاثين وخمسمائة » (المقريزى الخطط ، طبعة النيل ج ٢ ص ٣٠٥) . وصار وزراء الفاطميين بعد هذه السنة يحملون ذلك اللقب ، ومنهم أسد الدين شيركوه الذى لقبه الخليفة العاضد فى خطاب توليته الوزارة بالملك المنصور ؛ ومنهم أيضاً صلاح الدين الأيوبى الذى لقبه العاضد كذلك بالملك الناصر ، فكان هذا اللقب يمناً عليه ، ولزمه حتى وفاته

ولما ملك صلاح الدين وأصبح لآل أيوب الأمر والذكر لقب الكثيرون منهم بألقاب الملك ، وإن لم يحكموا مصر ، بل لدى ما يجعلنى أستزيد الأستاذ دعاء لى أن يسامحنى الله . فقد قال صاحب شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب حزاب عند ترجمة نجم الدين أيوب : « أيوب بن شادى نجم الدين الملك الأفضل وقيل الأوحد أبو الملوك الأيوبية ... الخ » . فنجم الدين الذى عنيته فى مقالى بالثقافة عن تاج الملوك بورى لقب بالملك الأفضل أو الأوحد ، والذى حمله هـذا اللقب هو الخليفة العاضد أيضاً (راجع المصدر السابق نفس الصفحة) إذ يقول عند كلامه عن لحاق نجم الدين بابنه صلاح الدين وحضوره إلى مصر : « وخرج إلى مصر بجماعته كلهم ، ولما قدم خرج العاضد للقائه ولقبه وزينت البلد الخ » ولم أعثر فيما قرأت عن الأيوبيين على مؤرخ واحد لقبه بالملك الصالح إنما الذى تفرد بحمل هذا اللقب هو نجم الدين بن الملك الكامل محمد ، لهذا كان لى عذرى أن حسبت أن الأسماء تشابهت على الأستاذ عبد الغنى ، ورأيت أنه لزام على أن أكتب ما كتبت

لم يبق إذن إلا أن الأستاذ يريد أن يضفى — من عنده — هـذا اللقب على أبى الملوك الأيوبيين لأنه كان محباً للصالحين كما يقول أبو المحاسن ج ٦ ص ٦٧ ، وهذا فرض بعيد أولاً ، ولا يسمح به التاريخ للأستاذ ثانياً ، لأن هؤلاء الملوك وأسماؤهم وألقابهم وأعمالهم أصبحت فى ذمة التاريخ ، ولا يسمح التحقيق العلمى لأحدنا ألبتة أن يغيّر فى صغيرة أو كبيرة منها ، فهل لا يزال الأستاذ بعد هـذا التحقيق مصراً على تلقيب نجم الدين الكبير بالملك الصالح ؟ لا — بل أنا أظنه — وقد ثبت لدى أنه يعلم أن الكبير غير الصغير ، يوافقنى على تلقيب الأول بالملك الأفضل أو الأوحد ، ويترك لقب الملك الصالح لمن يتميز به وهو حفيد العادل ؛ ولعلى — بهذه الكلمة — أكون قد أرضيت الحق والتاريخ أولاً ، والأستاذ عبد الغنى حسن ثانياً

جمال الدين الشيال

المهرجان الأدبى الثالث

يحتفل السودانيون كعادتهم فى كل عام بالمهرجان الأدبى الذى سيقام هذه السنة بنادى الخريجين بأم درمان فى أيام عيد الفطر المبارك حيث يعرض ما تنتجه العقلية السودانية فى ميادين الآداب والعلوم والفنون

والسودانيون الذين تربطهم بمصر روابط لا تنفصم عراها، والذين يستمدون ثقافتهم منها ، كم يسرهم أن يلبى رجال الفكر وقادة الرأى وحملة الأقلام دعوتهم ليسعدوا برؤية من يستطيع زيارة السودان فى ذلك الحين ، وليتذوقوا ما تخطه تلك الأقلام القوية فى مختلف الأبحاث

وليت أبناء الكنانة عاملون على تحقيق تلك الرغبة التى سيكون لها أثرها الخالد فى تدعيم الصلات بين القطرين الشقيقين

الأمين التوم
سكرتير المهرجان

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)